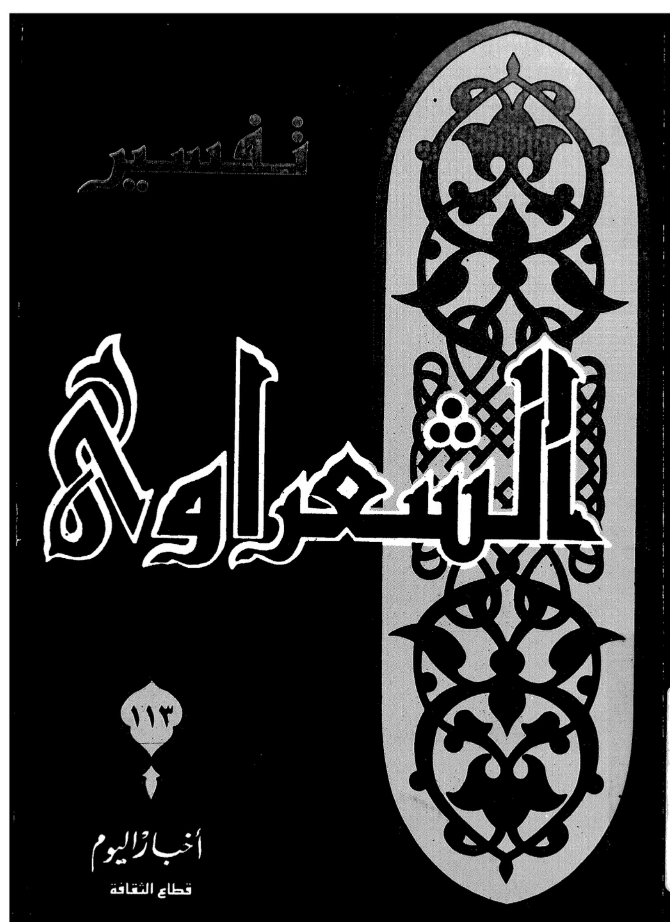

تفسير
الشعراوي
١١٣
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

إهـــــــداء ٢٠٠٧

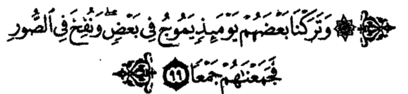
الدكتور / عاطف رمضان دياب
جمهورية مصر العربية

ثم يقـول تعـالى : ﴿فَـإِذَا جَـاءَ وَعْـدُ رَبِّى .. (٩٨)﴾ [الكهف] أى : الآخرة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ .. (٩٨)﴾ [الكهف] فإياكم أنْ تظنوا أن صلابة هذا السَّد ومـتانته باقيـة خالدة ، إنما هذا عـمل للدنيا فحـسب ، فإذا أتى وَعْد الله بالآخـرة والقيـامة جـعله الله دكّاً وسـوّاه بالأرض ، ذلك لكى لا يغـترون به ولا يـتمـردون على غـيرهم بعـد أنْ كـانوا مُسـتـذلّين مُسْتضـعفين ليأجوج ومـأجوج . وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعـة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء .

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨)﴾ [الكهف] واقعاً لا شكَّ فيه .

والتـحقـيق الأخيـر فى مسـألة ذى القرنين وبناء السـد أنه واقع بمكان يُسـمَّى الآن (بلخ) والـجبـلان من جـبـال القـوقـاز ، وهمـا موجودان فعلاً ، وبينهما فَجْوة مبنىٌّ فيها ، ويقولون : إن صاحب هذا البناء هو قورش ، وهذا المكان الآن بين بحر قزوين والبحر الأسود .

ثم يقول الحق سبحانه :



فإذا كانت القيامة تركناهم يمـوج بعضـهم فى بعض ، كموج الماء لا تستطيع أن تفـرق بعضـهم من بـعض ، كما أنك لا تسـتطيع فصل ذرات المـاء فى الأمـواج ، يخـتلط فـيـهم الحـابـل بالنابل ، والقـوىّ بالضعـيف ، والخائف بالمخيف ، فـهم الآن فى موقف القيـامة ، وقد انتهت العداوات الدنيوية ، وشُغل كل إنسان بنفسه .

وقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾ [الكهف]

وهذه هي النفخة الثانية ؛ لأن الأولى نفخة الصَّعْق ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البَعْث والقيامة ، والصَّعْق قد يكون مميتاً ، وقد يكون مُغْمياً لفترة ثم يفيق صاحبه ، فالصَّعْق المميت كما فى قوله تعالى :

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات]

أما الصَّعْقة التى تُسبِّب الإغماء فهى مثْل التى حدثت لموسى - عليه السلام - حينما قال : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

فالجبل الأشمّ الراسى الصُّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله ، وخَرَّ موسى مصعوقاً مُغمى عليه ، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه ، فكيف برؤية المتجلِّى سبحانه ؟

وكأن الحق سبحانه أعطى مثلاً لموسى - عليه السلام - فقال له : لست ضنيناً عليك بالرؤية ، ولكن قبل أن ترانى انظر إلى الجبل أولاً ليكون لك مثالاً ، إذن : لا يمنع القرآن أنْ يتجلى الله على الخَلْق ، لكن هل نتحمل نحن تجلِّى الله ؟

فمن رحمة الله بنا ألاَّ يتجلى لنا على الحالة التى نحن عليها فى الدنيا . أما فى الآخرة ، فإن الخالق سبحانه سيُعِدّنا إعداداً آخر ،

وسيخلقنا خلْقة تناسب تجلِّيه سبحانه على المؤمنين فى الآخرة ؛ لأنه سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وسوف نلحظ هذا الإعداد الجديد فى كُلِّ أمور الآخرة ، ففيها مثلاً تقتاتون ولا تتغوطون ؛ لأن طبيعتكم فى الآخرة غير طبيعتكم فى الدنيا .

لذلك جاء السؤال من موسى ـ عليه السلام ـ سؤالاً علمياً دقيقاً : ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] أى : أرنى كيفية النظر إليك ؛ لأنى بطبيعتى وتكوينى لا أراك ، إنما إنْ أريتنى أنت أرى .

وفى ضوء هذه الحادثة لموسى ـ عليه السلام ـ نفهم حديث النبى ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة ، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صُعِق ، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى »[1] .

قالوا : لأنه صُعِق مرة فى الدنيا ، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتْين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾

أى : تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها ، وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] والبعض يظن أن (واردها) يعنى : داخلها ، لا بل واردها

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤١٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٧٤) من حديث أبى سعيد الخدرى .

بمعنى : يراها ويمرُّ بها ، فقد ترد الماء بمعنى تصل إليه دون أنْ تشربَ منه ؛ ذلك لأن الصراط الذى سيمر عليه الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر .

أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالماً .

لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع ؛ لأنه يعلم أنه داخلها ، ولن يُفلتَ منها .

وقد وردتْ هذه المسألة فى سورة التكاثر حيث يقول تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر]

والمراد : لو أنكم تأخذون عنِّى العلم اليقينى فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها ، لأننى أنقل لكم الصورة العلمية الصادقة لها ، وهذا ما نُسمِّيه علم اليقين ، أما فى الآخرة فسوف ترونَ النار عينها . وهذا هو عين اليقين أى : الصورة العينية التى ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط .

وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهى علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد ، وتُكتب له النجاة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر]

أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النـار مرحلة ثالثة هى حَقُّ اليقين ، يوم يدخلهـا ويبـاشر حَـرَّها ، كـما قـال تعـالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : عندنا عِلْم اليـقـين ، وهـو الصورة العلميـة للنار ، والتى أخبـرنا بها الحق سبحـانه وتعالى ، وأن من صـفات النار كـذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن فى بحبوحة الدنيا وسـعَتها . وعَيْن اليقين : فى الآخـرة عندما نمـرُّ على الصــراط ، ونرى النار رؤيا العـين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سـحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفـاتها كذا وكذا فـأُعطيك عنها صـورة علمية صـادقة ، فإنْ صـدَّقتنى فـهذا علْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رأىَ العين فهذا عَيْن اليقينَ ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾ [الكهف] ليس كعرضـها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحـقّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾

أى : على أبصـارهـم غـشـاوة تمنعـهم إدراك الـرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل ﴿ وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾ [الكهف]

والمـراد هنا السمـع الذى يستـفـيد منه السـامع ، سَمْع العبـرة

والعظة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سماعٌ لا فائدةَ منه ؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم فى الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣) ﴾ [المائدة]

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن فى لغتنا العامية : (أنت مطنش عنى) ، يعنى : لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرَّ ؟ قال : نعم ، قال : أعْطنى مائة جنيه ، قال : كأنِّى لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

يعنى : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر فى سامعه ما قالوا هذا ، لكنهم بأذنهم العربية وملكَتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير فى سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولابُدَّ لهذا العربى الفصيح أنْ يهتزّ للقرآن ، ولابُدَّ أنه سيعرف أنه مُعجز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ . [فصلت]

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ

أَثيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) ﴾ [الجاثية]

وقد يتعدَّى الأمر مجرد السماع إلى منْع الكلام كما جاء في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

فليس الأمر منْع الاستماع ، بل أيضاً منْع الكلام ، فربما تصل كلمة إلى آذانهم وهم فى حالة انتباه فتُؤثّر فيهم ، أى منعوهم الكلام كما يُقال : اسكت ، أو أغلق فمك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ .. (١٠٢) ﴾ [الكهف] يعنى : أَعَمُوا عن الحق فظنُّوا أَنْ يتخذوا عبادى من دونى أولياء ؟ وسبق أن تحدثنا عن كلمة (عبَادى) وقلنا : إنهم المؤمنون بى المحبون لى ، الذين اختاروا مرادات الله على اختيارات نفوسهم ، وفرَّقْنا بين عبيد وعباد .

والكلام هنا عن الذين كفروا الذين اتخذوا عباد الله المقربين إليه المحبين له أولياء من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

فكيف تتخذونهم أولياء من دونى وتعاندوننى بهم وهم أحبتى ؟ يقول تعالى : ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة]

ومنهم مَنْ قال : الملائكة بنات الله ، فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله وهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله ، ويروْنَ شرفهم وعزَّتهم في عبوديتهم له سبحانه ، فإذا بكم تتخذونهم أولياء من دونى ، ويا ليتكم جعلتُم ذلك فى أعدائى ، فهذا منهم تغفيل حتى فى اتخاذ الشركاء ؛ لذلك كان جزاءَهم أنْ نُعدَّ لهم جهنم :

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢)﴾ [الكهف] والنُّزُل : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلاً ، فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣)﴾

(قُلْ) أى : يا محمد ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣)﴾ [الكهف] الأخسر : اسم تفضيل من خاسر ، فأخسر يعنى أكثر خسارة (أَعْمَالاً) أى : خسارتهم بسبب أعمالهم . وهؤلاء الأخسرون هم :

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾

وقد ضلَّ سَعْى هؤلاء ؛ لأنهم يفعلون الشر ، ويظنون أنه خير ، فهم ضالّون من حيث يظنون الهداية . ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر ، ويُنَادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة ، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعاً وقدَّموا خَيْراً ، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله ؟

الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيماً وتكريماً وتخليداً لذكراهم .

ومعنى : ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ .. (١٠٤)﴾ [الكهف] أى : بطُل وذهب ،

وكأنه لا شيءَ ، مثل السراب كما صوَّرهم الحق سبحانه في قوله :
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم ، ولا يمنعهم الأجْر ؛ لأنهم أحسنوا الأسباب ، لكن هذا الجزاء يكون في الدنيا ؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ، ولا نصيبَ لهم في جزاء الآخرة .

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في قوله تعالى :
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ومع ذلك يُبقى للكافر حَقَّه ، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يظلمه أو يعتدي عليه ، وفي حديث سيدنا جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت أن مُحدِّثاً حدَّث عن رسول الله بحديث أحببت ألاَّ أموت ، أو يموت هو حتى أسمعه منه ، فسألت عنه فقيل : إنه ذهب إلى الشام ، قال : فاشتريت ناقة ورحَّلتها[1] ، وسرْت شهراً إلى أنْ وصلتُ إلى الشام ، فسألت عنه فقيل : إنه عبد الله بن أُنَيْس ، فلما ذهبت قال له خادمه : إن جابر بن عبد الله بالباب ، قال جابر : فخرج ابنُ أُنَيْس وقد وَطِىء ثيابه من سرعته . قال عبد الله : واعتنقا .

قال جابر : حدِّثت أنك حدثتَ حديثاً عن رسول الله ﷺ : « إن الله ينادي يوم القيامة : يا ملائكتي ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أنْ يدخلَ النار وله عند أحد من أهل الجنة حَقٌّ حتى أقصَّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أنْ يدخلَ الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصَّه منه ، حتى اللطمة »[2] .

(١) ارتحل البعير : جعل عليه الرحل . ويقال : رحلت البعير أرحله رحْلاً إذا علوته . [لسان العرب ـ مادة : رحل] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٩٥) من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه .

فانظر إلى دقَّة الميزان وعدالة السماء التى تراعى حَقَّ الكافر ، فتقتصّ له قبل أنْ يدخل النارَ ، حتى ولو كان ظالمه مؤمناً .

وفى قوله تعالى : ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف]
جاءت كلمة الضلال فى القرآن الكريم فى عدّة استعمالات يُحدِّدها السياق الذى وردتْ فيه . فقد يأتى الضلال بمعنى الكفر ، وهو قمة الضلال وقمة المعاصى ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة]

ويُطلق الضلال ، ويُراد به المعصية حتى من المؤمن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]

ويُطلق الضلال ، ويُراد به أنْ يغيب فى الأرض ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿١٠﴾﴾ [السجدة]

يعنى : غبْنا فيها واختفينا .

ويُطلَق الضلال ويُراد به النسيان ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة]

ويأتى الضلال بمعنى الغفلة التى تصيب الإنسان فيقع فى الذنب دون قصد . كما جاء فى قصة موسى وفرعون حينما وكز[1] موسى الرجل فقضى عليه ، فلما كلمه فرعون قال : ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء]

---

(١) وكز : دفع وضرب : أى : ضربه بجُمْع يده الواحدة فمات . [القاموس القويم ٢/٣٥٤] .

أى : قتلتُه حال غفلة ودون قصد ، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل ؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها . ويحدث كثيراً أن واحداً تدهسه سيارة وبتشريح الجثة يتبين أنه مات بالسكتة القلبية التى صادفتْ حادثة السيارة .

ويأتى الضلال بمعنى : ألاَّ تعرف تفصيل الشيء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الضحى] أى : لا يعرف ما هذا الذى يفعله قومه من الكفر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ﴾

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ۝ ﴾ [الكهف] والآيات تُطلَق ثلاثة إطلاقات ، وقد كفروا بها جميعاً وكذَّبوا ، كفروا بآيات الكون الدالة على قدرة الله ، فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ، وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله ، وكذلك كفروا بآيات المعجزات التى أنزلها الله لتأييد الرسل فلم يصدقوها . إذن : كلمة : ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ۝ ﴾ [الكهف] هنا عامة فى كل هذه الأنواع .

(ولقائه) أى : وكفروا أيضاً بلقاء الله يوم القيامة ، وكذَّبوا به ، فمنهم مَنْ أنكره كلية فقال : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

ومنهم مَن اعترف ببعْث على هواه ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ ﴾ [الكهف]

ومنهم مَنْ قال : إن البعث بالروح دون الجسد وقالوا في ذلك كلاماً طويلاً ، إذن : إما ينكرون البعث ، وإما يُصوِّرونه بصورة ليست هي الحقيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] أي : بطُلت وذهب نفعُها ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف]

وقد اعترض المستشرقون على هذه الآية ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين الآيات التي تثبت الميزان ، كما في قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

ونقول : إن العلماء في التوفيق بين هذه الآيات قالوا[1] : المراد بقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، فالمراد لا وزنَ لهم عندنا أي : لا اعتبارَ لهم ، وهذه نستعملها الآن في نفس هذا المعنى نقول : فلان لا وزنَ له عندي . أي : لا قيمة له .

وبالبحث في هذه الآية وتدبرها تجد أن القرآن الكريم يقول : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] ولم يقُلْ : عليهم ، إذن : الميزان

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ٢٥١) : « قوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] . أي : قدراً لحقارتهم ، وليس المراد فلا ننصب لهم ميزاناً لأن الميزان إنما ينصب ليوزن به الحسنات في مقابلته السيئات ، والكافر لا حسنة له » .

موجود ، ولكنه ليس فى صالحهم ، فالمعنى : لا نقيم لهم ميزاناً لهم ، بل نقيم لهم ميزاناً عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(ذلك) أى : ما كان من إحباط أعمالهم ، وعدم إقامتنا لهم وزناً ليس تجنِّياً منَّا عليهم أو ظلماً لهم ، بل جزاءً لهم على كفرهم فقوله ﴿بِمَا كَفَرُوا .. ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف] أى : بسبب كفرهم .

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف] فقد استهزأوا بآيات الله ، وكلما سمعوا آية قالوا : أساطير الأولين : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم]

وكذلك لم يَسْلَم رسول الله ﷺ من سخريتهم واستهزائهم ، والقرآن يحكى عنهم قولهم لرسول الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر] فقولهم ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. ﴿٦﴾﴾ [الحجر] أى : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخرية واستهزاءً .

وفى سورة « المنافقون » يقول القرآن عنهم : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] فقولهم ﴿رَسُولِ اللَّهِ.. ﴿٧﴾﴾ ليس إيماناً به ، ولكن إمّا غفلة منهم عن الكذب الذى يمارسونه ، وإما سُخْرية واستهزاءً كما لو كنتَ فى مجلس ، ورأيتَ أحدهم يدَّعى العلم ويتظاهر به فتقول : اسألوا هذا العالم .

وفى آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿وَإِن

يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ[1] بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ [القلم]

ثم يتحدث القرآن عن المقابل لهؤلاء ، فيقول :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧)﴾

قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠٧)﴾ [الكهف] سبق أن قلنا : إن الإيمان هو تصحيح الينبوع الوجدانى العقدى لتصدر الأفعال مناسبة لإيمانك بمَنْ شرَّع ، ومن هنا كان الإيمان أولاً وشرطاً لقبول العمل ، وإلاَّ فهناك مَنْ يعمل الخير لا من منطلق إيمانى بل لاعتبارات أخرى ، والنية شَرْط لازم فى قبول العمل .

لذلك يعاقب الله تعالى مَنْ يعمل العمل لغير الله ، يعاقبه بأنْ ينكره صاحبه ويجحده ويكرهه بسببه ، بدل أنْ يعترفَ له بالجميل . ومن هنا قالوا : (اتق شرَّ مَنْ أحسنتَ إليه) ؛ وهذا قول صحيح لأنك حين تُحسن إلى شخص تدكُّ كبرياءه ، وتكون يدك العليا عليه ، فإذا ما أخذ حظاً من الحياة وأصبح ذا مكانة بين الناس فإن كان غير سَوِىٍّ النفس فإنه لا يحب مَنْ تفضل عليه فى يوم من الأيام ودَكَّ كبرياءه ؛ لذلك تراه يكره وجوده، ولا يحب أنْ يراه ، وربما دبَّر لك المكائد لتختفى من طريقه ، وتُخلى له الساحة ؛ لأنك الوحيد الذى يحرجه حضورك .

لذلك ، مَنْ عمل عملاً لغير الله أسلمه الله لمن عمل له ، فليأخذ منه الجزاء ، وإذا بالجزاء يأتى على خلاف ما تنتظر ، فقد فعلت له

(١) أزلقه : جعله يزلق (تزل قدمه) كان أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ٢٨٩/١] .

لِيُكرمك فإذا به يُهينك ، فعلْتَ له ليحترمك فإذا به يَحْقرك ، فعلتَ له لِيُواليك فإذاً به عدو لك ؛ لذلك يقولون : العمل لله عاجلَ الجزاء ، أما العمل لغير الله فغير مضمون العواقب ، فقد يُوفى لك وقد لا يُوفى .

ثم أردف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمانَ بالعمل الصالح ؛ لأن العمل الصالح لا بُدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧) ﴾ [الكهف]

﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧) ﴾ [الكهف] يعنى : عمل الشىء الصالح ، فإن كان الشىء صالحاً بنفسه فليتركه على صلاحه لا يفسده ، أو يزيده صلاحاً ، كبئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فإمّا أن تتركه على حال صلاحه لا تُلقى فيه ما يسدُّه أو يُفسده فتُخرج الصالح عن صلاحه ، وإما أنْ تزيده صلاحاً فتُضيف إليه ما يُحسِّن من أدائه ويُزيد من كفاءته كأنْ تبنى حوله سوراً يحميه أو غطاءً يحفظه ، أو آلةَ رفع تُيسِّر على الناس استعماله .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثرَ من حصيلته من عمله هو ؛ لأنه فَرْد واحد ، ويستفيد بصلاح المجتمع كله ، ومن هنا لا ينبغى أنْ تستثقلَ أوامر الشارع وتكليفاته ؛ لأنه يأخذ منك ليعطيك وَليُؤمِّن حياتك وقت الحاجة والعَوَز ، وحينما يتوفّر لك هذا التكافل الاجتماعى تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر ، مطمئنة حال العُسْر .

وساعةَ أنْ يأمرك الشرع بكفالة اليتيم وإكرامه ، فإنه يُطمئنك على أولادك من بعدك ، فلا تحزن إنْ أصابك مكروه ؛ لأنك فى مجتمع متعاون ، سيكفل أولادك ، بل قد يكون اليتيم فى ظل الإسلام وتعاليمه أسعَد حظاً من حياته فى رعاية أبيه ؛ لأنه بموت أبيه يجد

المؤمنين جميعاً آباءً له ، وربما كان أبوه مشغولاً عنه في حياته لا يُفيده بشيء ، بل ويصدُّ عنه الخير حيث يقول الناس : أبوه موجود وهو يتكفّل به .

لذلك يقول أحمد شوقي(١) :

لَيْسَ اليَتيمُ مَنِ انتهَى أَبَوَاهُ مِنْ هَمِّ الحيَاةِ وخَلَّفَاهُ ذَليلا

إنَّ اليَتيمَ هُوَ الذى تَلْقَى لَهُ أُمّـاً تخـلّتْ أَوْ أبَاً مَشْغُولا

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف]

الفردوس : هو أعلى الجنة ، والنُّزُل : ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوّمات الحياة وترفها ، والإنسان حينما يُعدُّ النزُلَ لضيفه يعده على حَسْب قدراته وإمكانياته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المعدّ للنُّزُل هو الله تبارك وتعالى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

وخلود النعيم في الآخرة يُميّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا ، كما أن نعيم الدنيا يأتي على قَدْر تصوُّرنا في النعيم وعلى حَسْب قدراتنا ، وحتى إنْ بلغنا القمة في التنعُّم في الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله ، فإما أنْ يتركك النعيم ، وإما أن تتركه ، وأما في الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنت مُخلّد فيها فلن تتركك النعمة ولن تتركها .

---

(١) هو : أشهر شعراء العصر الحديث ، يلقب بأمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة ، نشأ في ظل البيت المالك بمصر . ولد ١٨٦٨ م . تابع دراسة الحقوق في فرنسا . من آثاره « الشوقيات » « مجنون ليلى » « مصرع كليوباترا » توفي عام ١٩٣٢ م عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلي ١ / ١٣٦ ، ١٣٧) .

لذلك يقـول تعالى بعـدها : ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف] أى : لا يطلبون تحوُّلهم عنها إلى غيرها ، لأنه لا يُتصوَّر فى النعيم أعلى من ذلك .

ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية ، فكلما نال خيراً تطلع إلى أعلى منه ، وكلما حاز متعةً ابتغى أكثر منهـا ، هذا فى الدنيا أما فى الآخـرة فالأمر مـختلـف ، وإلا فكيف يطلب نعيـماً أعلى من نعـيم الجنة الذى قال الله عنه : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة]

أى : كلما رزقهم الله ثمـرةً أتتْهم أخرى فقالوا : لقـد رُزِقْنا مثلها من قبل ، وظنّوها كسـابقتها ، لكنهـا ليست كسابقتـها بل بطَعم جديد مختلف ، وإنْ كـانت نفس الثمرة ، ذلك لأن قدرة الأسبـاب محدودة ، أما قدرة المسبِّب فليست محدودة .

والحق سبـحانه وتعالى قادر عـلى أن يُخرج لك الفاكهـة الواحدة على ألف لَوْن وألف طَعْم ؛ لأن كمالاته تعـالى لا تتناهى فى قدرتها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا.. ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة] فالثمر واحد متشابه ، أمَّا الطعم فمختلف[1] .

والإنسان منّا ليشقَّ طريقـه فى الحياة يظل يتعلّم ، ليأخـذ شهادة مثـلاً أو يتعلم مـهنة ، ويظل فى تعب ومشـقة ما يقـرب من خمـسة وعـشرين عـاماً من عـمره أمـلاً فى أن يعيـش باقى حيـاته المظنونة مرتاحاً هانئاً ، وهَبْ أنك ستعيش باقى حياتك فى راحة ، فكم سيكون الباقى منها ؟

---

(١) قال ابن عـباس : ليس فى الـدنيا ممـا فى الجنة شىء إلا الأسـماء . أورده السيـوطى فى « الدر المنثـور » (١/ ٩٦) وعـزاه لمسـدد وهـناد فى الزهد وابن جـريـر وابن المنذر والبيهقى فى البعث .

أمـا الراحـة الأبدية فى الآخـرة فـهى زمن لا نـهـايةَ له ، ونعـيم خـالد لا ينتهى ، ففى أىٍّ شىء يطمع الإنسان بعد هذا كله ؟ وإلى أىٍّ شىء يطمح ؟

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾

لأن قدرتـه تعالى لا حـدود لها ، وما دامـت قدرته لا حدود لـها فالمقدورات أيضاً لا حدود لها ؛ لـذلك لو كان البحر مداداً أى : حبْراً يكتب به كلمـات الله التى هى (كُنْ) التى تبـرز المقـدورات ما كـان كافياً لكلمات الله ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف] أى : بمثل البحر .

ونحن نقول مثلاً عن السلعة الجـيدة : لا يستطيع المصنع أنْ يُخرِج أحسن من هذه ، أمـا صنعة الله فـلا تقف عند حد ؛ لأن المصـنع يعالج الأشياء ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيصنعها بكلمة كُنْ ؛ لذلك نجد فى أرقى فنادق الدنيـا أقـصى ما توصلَّ إليـه العلم فى خـدمـة البشـر أنْ تضغطَ على زرٍّ معين ، فيُخرِج لك ما تريد من طعام أو شراب .

وهذه الأشياء بلا شكَّ مُعدَّة ومُجهَّزة مُسْبقاً ، فقط يتم استدعاؤها بالضـغط على زر خـاص بكل نوع ، لكن هل يوجـد نعـيم فى الدنيـا يحضر لك ما تريد بمجرد أن يخطر على بالك ؟ إذن : فنعيم الدنيا له حدود ينتهى عندها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد استنفدتم وسائلكم فى الدنيا ، وبلغتم أقصى ما يمكن من مُتَعها وزينتها ، فتعالوا إلى ما أعددتُه أنا لكم ، اتركوا ما كنتم فيه من أَسباب الله ، وتعالوا عِيشُوا بالله ، كنتم فى عالم الأسباب فتعالوْا إلى المسبِّب .

وإنْ كان الحق سبحانه قد تكلم فى هذه الآية عن المداد الذى تُكتب به كلمات الله ، فقد تكلَّم عن الأقلام التى يكتب بها فى آية أخرى أكثر تفصيلاً لهذه المسألة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]

ونقف هنا عند دقَّة البيان القرآنى ، فلو تصوَّرنا ما فى الأرض من شجر أقلام ، معَ ما يتميز به الشجر من تجدُّد مستمر ، وتكرُّر دائم يجعل من الأشجار ثروة لا حَصْر لها ولا تنتهى ، وتصوَّرنا ماء البحر مداداً يُكتب به إلا أنَّ ماء البحر منذ خلقه الله تعالى محدود وثابت لاَ يزيد ولا ينقص .

لذلك لما كان الشجر يتجدَّد ويتكرَّر ، والبحر ماؤه ثابت لا يزيد . قال سبحانه : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] ليتناسب تزايد الماء مع تزايد الشجر ، والمراد سبعة أمثاله ، واختار هذا العدد بالذات ؛ لأنه مُنتَهى العدد عند العرب .

وقد أوضح لنا العلم دورة الماء فى الطبيعة ، ومنها نعلم أن كمية الماء فى الأرض ثابتة لا تزيد ؛ لأن ما يتم استهلاكه من الماء يتبخَّر ويعود من جديد فالإنسان مثلاً لو شَرِبَ طيلة عمره مائة طن من الماء ، فاحسب ما يخرج منه من بول وعرق وفضلات فى عملية الإخراج تجدها نفس الكمية التى شربها ، وقد تبخرتْ وأخذَتْ دورتها من جديد ؛ لذلك يقولون : رُبَّ شربةِ ماء شربها من آدم الملايين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾

(قُلْ) أى : يا محمد ، وهذا كلام جديد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (١١٠)﴾ [الكهف] يعنى : خُذُونى أُسْوة ، فأنا لست ملَكاً إنما أنا بشر مثلكم ، وحملتُ نفسى على المنهج الذى أطالبكم به ، فأنا لا آمركم بشىء وأنا عنه بنجْوَى . بل بالعكس كان ﷺ أقلَّ الناس حَظّاً من مُتَعِ الحياة وزينتها .

فكان فى المؤمنين به الأغنياء الذين يتمتعون بأطايب الطعام ، ويرتدُونَ أغْلى الثياب فى حين كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران دون أنْ يُوقَد فى بيته نار لطعام[1] ، وكان يرتدى المرقّع من الثياب ، كما أن أولاده لا يرثونه ، كما يرث باقى الناس ، ولا تحل لهم الزكاة كغيرهم ، فحُرموا من حَقٍّ تمتع به الآخرون .

لذلك كان ﷺ أدنى الأسوات أى : أقل الموجودين فى مُتَع الحياة وزُخْرفها ، وهذا يلفتنا إلى أن الرسالة لم تُجْر لمحمد نفعاً دنيوياً ، ولم تُميِّزه عن غيره فى زَهْرة الدنيا الفانية ، إنما مَيَّزتْه فى القيم والفضائل .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : كان يمر بنا هلال وهلال وهلال وما يوقد فى منزل رسول الله ﷺ نار . قلت : أىْ خالة ، على أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : التمر والماء . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٦٧/٥ - فتح) (٦٤٥٩/١١ - فتح) وكذا مسلم فى صحيحه (جـ ٤ - الزهد / ٢٨) .

ومن هنا كان ﷺ يقول : « يرد علىَّ - يعنى من الأعلى - فأقول : أنا لست مثلكم ، ويؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

والآية هنا لا تميزه ﷺ عن البشر إلا فى أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (١١٠)﴾ [الكهف] فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أنما : أداة قَصْر ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أى : لا إله غيره ، وهذه قِمَّة المسائل ، فلا تلتفتوا إلى إله غيره ، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أنْ يكونَ له إله واحد ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً ليوضح لنا هذه المسألة فقال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فلا يستوى عبد مملوك لعدة أسياد يتجاذبونه ؛ لأنهم متشاكسون مختلفون يَحَارُ فيما بينهم ، إنْ أرضى هذا سخط ذاك . هل يستوى وعبد مملوك لسيد واحد ؟ إذن : فمما يُحمَد الله عليه أنه إله واحد .

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] الناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم فى الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنة ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضّح لنا غاية أَسْمى من الجنة ونعيمها ، هى لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : ﴿يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] تصرف النظر عن النعمة إلى المنعم تبارك وتعالى .

فمَنْ أراد لقاء ربه لا مُجرَّد جزائه فى الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا .. (١١٠)﴾ [الكهف] فهذه هى الوسيلة إلى لقاء الله ؛ لأن العمل

الصالح دليل على أنك احترمتَ أمر الآمر بالعمل ، ووثقتَ من حكمته ومن حُبِّه لك فارتاحتْ نفسك فى ظلِّ طاعته ، فإذا بك إذا أويْتَ إلى فراشك تستعرض شريط أعمالك ، فلا تجد إلا خيراً تسعَدُ به نفسك ، وينشرح له صدرك ، ولا تتوجَّس شراً من أحد ، ولا تخاف عاقبة أمر لا تُحمَدُ عقباه ، فمَن الذى أنعم عليك بكل هذه النعم ووفَّقك لها ؟

ثم : ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف] وسبق أن قُلْنا : إن الجنة أحد ، فلا تشرك بعبادة الله شيئاً ، ولو كان هذا الشيء هو الجنة ، فعليك أنْ تسموَ بغاياتك ، لا إلى الجنة بل إلى لقاء ربها وخالقها والمنعِم بها عليك .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالرجل الذى أعدَّ وليمة عظيمة فيها أطايب الطعام والشراب ، ودعا إليها أحبابه فلما دخلوا شغلهم الطعام إلا واحداً لم يهتم بالطعام والشراب ، وسأل عن صاحب الوليمة ليُسلِّم عليه ويأنس به .

وما أصدق ما قالته رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعبدُونَ مِنْ خَوْفِ نارٍ ويرونَ النَّجاةَ حَظًّا جَزِيلاً
أَوْ بأنْ يسكنُوا الجِنَان فيحظَوْا بقُصُورٍ ويشْرَبُوا سلْسَبِيلا
ليسَ لِى بالجِنَانِ والنَّارِ حظٌّ أنَا لا أبتَغِى بحُبِّى بَدِيلا

وهذا يشرح لنا الحديث القدسى : « لوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهْلاً لأنْ أُعْبَد ؟ » .

فلا ينبغى للعبد أن يكون نفعياً حتى فى العبادة ، والحق سبحانه وتعالى أهْلٌ بذاته لأن يُعبد ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، فاللهم ارزقنا هذه المنزلة ، واجعلنا برحمتك من أهلها .


سورة مريم

سورة مريم [1]

بسم الله الرحمن الرحيم



هذه خمسة حروف مقطعة ، تُنطق باسم الحرف لا بمُسمَّاه ، لأن الحرف له اسم وله مُسمًّى ، فمثلاً كلمة (كتب) مسماها (كتب) ، أما بالاسم فهى كاف ، تاء ، باء . فالاسم هو العلَم الذى وُضِع للدلالة على هذا اللفظ .

وفى القرآن الكريم سور كثيرة ابتُدِئَتْ بحروف مُقطعة تُنطق باسم الحرف لا مُسمَّاه ، وهذه الحروف قد تكون حَرفاً واحداً مثل : ن ، ص ، ق . وقد تكون حرفين مثل : طه ، طس . وقد تكون ثلاثة أحرف مثل : الم ، طسم . وقد تأتى أربعة أحرف مثل : المر . وقد تأتى بخمسة أحرف مثل : كهيعص ، حمعسق .

---

(١) سورة مريم هى السورة (١٩) فى ترتيب المصحف الشريف ؛ وهى سورة مكية ، عدد آياتها ٩٨ آية . وهى السورة الثالثة والأربعون فى ترتيب النزول ، وقد نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن ، نقله السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن (١/ ٢٧) . وسورة مريم تقع كلها فى الجزء السادس عشر من القرآن .

لذلك نقول : لا بُدَّ فى تعلُّم القرآن من السماع ، وإلاَّ فكيف تُفرِّق بين الم فى أول البقرة فتنطقها مُقطَّعة وبين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] فتنطقها موصولة ؟ وصدق الله تعالى حين قال : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة]

ونلاحظ فى هذه الحروف أنه يَنطِق بالمسمَّى المتعلم وغير المتعلم ، أما الاسم فلا ينطق به ولا يعرفه إلا المتعلِّم الذى عرف حروف الهجاء . فإذا كان الرسول ﷺ أمياً لم يجلس إلى معلم ، وهذا بشهادة أعدائه ، فمن الذى علمه هذه الحروف ؟

إذن : فإذا رأيت هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمَّيات الحروف لا بأسمائها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢﴾

الذكْر : له معانٍ متعددة ، فالذكْر هو الإخبار بشىء ابتداءً ، والحديث عن شىء لم يكُنْ لك به سابق معرفة ، ومنه التذكير بشىء عرفته أولاً ، ونريد أن نُذكِّرك به ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات]

ويُطلَق الذكْر على القرآن : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] وفى القرآن أفضل الذكر ، وأصدق الأخبار والأحداث . كما يُطلق الذكر على كل كتاب سابق من عند الله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل]

والذكْر هو الصِّيت والرِّفْعة والشرف ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤)﴾ [الزخرف] وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠)﴾ [الأنبياء] أى : فيه صيتكم وشرفكم ، ومن ذلك قولنا : فلان له ذكْر فى قومه .

ومن الذكْر ذكْر الإنسان لربه بالطاعة والعبادة ، وذكْر الله لعبده بالمثوبة والجزاء والرحمة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢)﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ .. (٢)﴾ [مريم] أى : هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به .

والرحمة : هى تجليّات الراحم على المرحوم بما يُديم له صلاحه لمهمته ، إذن : فكلٌّ راحم ولو من البشر ، وكلٌّ مرحوم ولو من البشر ، ماذا يصنع ؟ يعطى غيره شيئاً من النصائح تُعينه على أداء مهمته على أكمل وجه ، فما بالك إنْ كانت الرحمة من الخالق الذى خلق الخلق ؟ وما بالك إذا كانت رحمة الله لخير خَلْقه محمد ؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة ؛ لأنه ﷺ أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم ، فلا وَحْىَ ولا رسالة من بعده ، ولا إكمال . إذن : فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخَلْق ، ورحمة كل نبى تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته ، ومهمة محمد أكرم المهمات .

وكلمة (رَحْمَة) هنا مصدر يؤدى معنى فعله ، فالمصدر مثل الفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول ، كما نقول : آلمنى ضَرْب الرجل ولدَه ، فمعنى : ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)﴾ [مريم] أى : رحم ربُّكَ عبده زكريا .

لذلك قال تعالى : ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ .. (٢)﴾ [مريم] لأنها أعلى أنواع الرحمة ، وإنْ كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا ، فقد خاطب محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] فرحمة الله تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به ، بل هى رحمة عامة لجميع العالمين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

فالمراد من ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)﴾ [مريم] يعنى هذا الذى يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذكْر وحديث وخبر رحمة ربك التى هى أجلُّ الرحمات بعبده زكريا . وسبق أن أوضحنا أن العبودية للخَلْق مهانة ومذلّة ، وهى كلمة بشعة لا تُقبل ، أما العبودية لله تعالى فهى عزٌّ وشرف ، بل مُنتَهى العزِّ والشرف والكرامة ، وعللنا لذلك بأن العبودية التى تسوء وتُحزن هى عبودية العبد لسيد يأخذ خيره ، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده .

لكن ، ما نوع الرحمة التى تجلى الله تعالى بها حين أخبر رسوله ﷺ بخبر عبده زكريا ؟

قالوا : لأنها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة فى الكون ، وطلاقة القدرة فى أن الله تبارك وتعالى خلق للمسبِّبات أسباباً ، ثم قال للأسباب : أنت لست فاعلة بذاتك ، ولكن بإرادتى وقدرتى ، فإذا أردتُك ألاَّ تفعلى أبطلْتُ عملك ، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به .

ومن ذلك ما حدث فى قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار فى النار ، ولم يكن حظ الله بإطفاء النار عن إبراهيم ، أو بجَعْل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم أن يُنجى إبراهيم ؛ لأنه كان من الممكن ألاَّ يُمكّنَ خصوم إبراهيم عليه السلام من القبض عليه ، أو أن يُنزل مطراً

يُطفىء ما أوقدوه من نار ، لكن ليست نكاية القوم فى هذا ، فلو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم ، أو نـزل المطر فأطفأ النار لقالوا : لو كُنَّا تمكنَّا منه لفعلنا به كذا وكذا ، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا .

إذن : شـاءت إرادة الله أنْ تكيـد هؤلاء ، وأن تُظـهـر لهم طلاقـة القـدرة الإلهية فـتُمكّـنهم من إبراهيم حتى يلقـوه فى النار فعـلاً ، ثم يأتى الأمر الأعلى من الخـالق سبحـانه للنار أن تتعطل فـيها خاصـية الإحراق : ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

وكذلك فى قصـة رحمة الله لعبده زكريا تـعطينا دليلاً على طلاقة القدرة فى مسألة الخَلْق ، وليلفتنا إلى أن الخـالق سبحانه جعل للكون أسباباً ، فمَنْ أخذ بالأسباب يصل إلى المسبِّب ، ولكن إياكم أنْ تُفتَنوا فى الأسباب ؛ لأن الخالق سـبحانه قد يعطيكم بالأسباب ، وقـد يُلغيها نهائياً ويأتى بالمسبَّبات دون أسباب .

وقـد تجلَّتْ طلاقة الـقدرة فى قـصة بَدْء الـخَلْق ، فنحن نعلم أن جمهرة الناس وتـكاثرهـم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة ، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسبـاب ، والخالق سبحانه يُدير خلقـه على كُلِّ أوجـه الخَلْق ، فيـأتى آدم دون ذكـر أو أنثى ، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى ، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر .

فالقدرة الإلهية ـ إذن ـ غير مُقيَّدة بالأسباب ، وتظلّ طلاقة القدرة هذه فى الخَلْق إلى أنْ تقـومَ الساعة ، فنرى الرجل والمـرأة زوجين ، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهـما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبِّب سبحانه ، فهو القائل :

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا

وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

وطلاقة القدرة فى قصة زكريا عليه السلام تتجلى فى أن الله تعالى استجاب لدعاء زكريا فى أنْ يرزقَه الولد . قال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾ [مريم]

أى : رحمه الله ، لكن متى كانت هذه الرحمة ؟

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾

أى : فى الوقت الذى نادى فيه ربه نداءً خفياً .

والنداء لَوْنٌ من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يقسمون الكلام إلى : خبر ، وهو أن تخبر عن شىء بكلام يحتمل الصدق أو الكذب . وإنشاء ، وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قَوْلٌ لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ؛ لأنك تريد أن تنشىء شيئاً من عندك ، فلو قُلْت : يا محمد فأنت تريد أن تنشىء إقبالاً عليك ، فالنداء - إذن - طلَبُ الإقبال عليك ، لكن هل يصح أن يكون النداء مع الله تعالى بهذا المعنى ؟ إنك لا تنادى إلا البعيد عنك الذى تريد أن تستدنيه منك .

فكيف تنادى ربك - تبارك وتعالى - وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم ؟ فإذا كان إقباله عليك موجوداً فى كل وقت ، فما الغرض من النداء هنا ؟ نقول : الغرض من النداء : الدعاء .

ووَصْف النداء هنا بأنه : ﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾ [مريم] لأنه ليس كنداء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رَفْع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء الله ـ تبارك وتعالى ـ الذى يستوى عنده السر والجهر ، وهو القائل : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ(1) الصُّدُورِ ۝١٣ ﴾ [الملك]

ومن أدب الدعاء أنْ ندعوَه سبحانه كما أمرنا : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .. ۝٥٥ ﴾ [الأعراف]

وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه] أى : وما هو أخْفى من السر ؛ لأنه سبحانه قبل أن يكون سراً ، علم أنه سيكون سراً .

لذلك ، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفى ؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشىء ، إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خَفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضحَ أمره عند الناس .

أما الحق سبحانه فهو ستَّار يحب الستر حتى على العاصين ، وكذلك ليدعو العبد رَبَّه بما يستحى أنْ يذكره أمام الناس ، وليكون طليقاً فى الدعاء فيدعو ربه بما شاء ؛ لأنه ربُّه ووليه الذى يفزع إليه . وإنْ كان الناس سيحزنون ويتضجرون إن سألتهم أدنى شىء ، فإن الله تعالى يفرح بك إن سألته .

لكن لماذا أخفى زكريا دعاءه ؟

دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ، ولكن كيف يتحقق له هذا المطلب وقد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟ فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده ؛ لذلك توجه إلى الله بالدعاء : يا رب لا ملجأ لى إلا أنت ، فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون ، وهذا مطلب من زكريا جاء فى غير وقته .

---

(1) أى : بما يخطر فى القلوب . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣٩٧/٤) .

أخفاه أيضاً ؛ لأنه طلب الولد في وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلاّ أنه لم يأتمنهم على منهج الله ؛ لأن ظاهر حركتهم في الحياة غير متسقة مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟ فإذا دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ؛ لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسِرُّه بينه وبين ربه تعالى .

سؤال آخر تنبغي الإجابة عليه هنا : لماذا يطلب زكريا الولد في هذه السن المتأخرة ، وبعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وأصبحت امرأته عاقراً ؟

لقد أوضح زكريا عليه السلام العلة في ذلك في الآيات القادمة فقال : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. (٦)﴾ [مريم]

إذن : فالعلَّة في طلب الولد دينية مَحْضَة ، لا يطلبه لمغْنَم دنيوي ، إنما شغفه بالولد لأنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمايته من الإفساد .

لذلك قوله : (يرثني) هنا لا يفهم منه ميراث المال كما يتصوره البعض ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، كما قال النبي ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] وبذلك يخرج النبي من الدنيا دون أن ينتفع أحد من أقاربه بماله حتى الفقراء منهم .

فالمسألة مع الأنبياء خالصة كلها لوجه الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. (٦)﴾ [مريم] أي : النبوة التي

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٥٨) ، والبخاري في صحيحه (٣٠٩٢) بنحوه عن عائشة رضي الله عنها . ولفظ مسلم : إن أزواج النبي ﷺ حين توفي ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

تناقلوها . فلا يستقيم هنا أبداً أن نفهم الميراث على أنه ميراث المال أو متاع الدنيا الفانى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. (١٦) ﴾ [النمل] ففى أىِّ شىء ورثه ؟ أورثه فى تركته ؟ إذن : فما موقف إخوته الباقين ؟ لابد أنه ورثه فى النبوة والملك ، فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه أن زكريا عليه السلام قال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾

هذا هو النداء ، أو الدعاء الذى دعا به زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. (٤) ﴾ [مريم] ويرد فى الدعاء أن نقول : يارب . أو نقول : يا الله ، فقال زكريا (رب) أى : يا رب ؛ لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذى يشمل المؤمن والكافر ، إنه يطلب الولد ، وهذا أمر يتعلق ببنية الحياة وصلاحها للإنجاب ، وهذه من عطاء الرب سبحانه وتعالى ، وإن كانت العلة فى طلب الولد إلهية ، وهى أنْ يحمل المنهج من بعد أبيه .

فكأن زكريا عليه السلام دعا ربه : يا ربّ يا مَنْ تعطى مَنْ آمن بك ، وتعطى مَنْ كفر ، يا مَنْ تعطى مَنْ أطاع ، وتعطى مَنْ عصى ، حاشاك أن تمنع عطاءك عمَّن أطاعك ويدعو الناس إلى طاعتك .

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٥٢/٦) : « للعلماء فيه ثلاثة أجوبة : قيل : هى وراثة نبوة . وقيل : هى وراثة حكمة . وقيل : هى وراثة مال . أما قولهم وراثة نبوة فمحال ، لأن النبوة لا تورث . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن » . وقال ابن كثير فى تفسيره (١١١/٣) : « اختار ابن جرير فى تفسيره قول أبى صالح : يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة » بتصرف .

أما الدعاء بالله ففى أمور العبادة والتكليف .

ثم يُقدِّم زكريا عليه السلام حيثيات هذا المطلب : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] والوَهَن هو الضعف ، وقال : ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ.. ④﴾ [مريم] لأن لكل شيء قواماً فى الصلابة والقوة ، فمثلاً الماء له قوام معروف والدُّهْن له قوام ، واللحم له قوام ، والعصب والعظم وكل عناصر تكوين الإنسان ، والعَظْم هو أقوى هذه الأشياء ، والعَظْم فى بناء الجسم البشرى مثل (الشاسيه) فى لغة العصر الحديث ، وعلى العظم يبنى جسم الإنسان من لحم ودم وعصب ، فإذا أصاب العظام ـ وهى أقوى العناصر ـ ضعفٌ ووهنٌ فغيرها من باب أَوْلى .

لذلك ، فإن الرجل العربى حينما شكا الجدب والقحط ماذا قال ؟ قال : مرَّتْ بنا سنون صعبة : فَسنة أذابتْ الشحم ـ أى : بعد الجوع وعدم الطعام ـ وسنة أذهبت اللحم ـ أى : بعد أن أنهت الشحم ـ وسنة محَّت العظم .

فكأن العَظْم هو آخر مخزن من مخازن القوت فى جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام والشراب . والعظم فى هذه الحالة يُوجِّه غذاءه للمخ خاصة ؛ لأنه ما دام فى المخ بقية قبول حياة فما حدث للجسم من تلف قابل للإصلاح والعودة إلى طبيعته ، إذن : فسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة المخ .

لذلك نجد الأطباء فى الحالات الحرجة يُركِّزون اهتمامهم على سلامة المخ ، ويرتبون عليه حياة الإنسان أو موته ، حتى إن توقف القلب فيمكنهم بالتدليك إعادته إلى حالته الطبيعية ، أما إنْ توقف المخ فهذا يعنى الموت .

فكأن نبى الله زكريا ـ عليه السلام ـ يقول : يارب ضعف عظمى ، ولم يَعُدْ لدىَّ إلا المصدر الأخير لاستبقاء الحياة .

ولما كان العظم شيئاً باطناً مدفوناً تحت الجلد ، فهو حيثية باطنة ، فأراد زكريا عليه السلام أنْ يأتىَ بحيثية أخرى ظاهرة بينة ، فأتى بأمر واضح : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④ ﴾ [مريم] فشبّه انتشار الشيب فى رأسه باشتعال النار ، فالشعر الأبيض الذى يعلوه واضح كالنار .

والمتأمل فى هذا التشبيه يجد أن النار أيضاً تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو طالما فى الحطب الحيوية النباتية التى تمد النار ، فإذا ما انتهتْ هذه الحيوية النباتية فى الحطب أخذت النار فى التضاؤل ، حتى تصير جَذْوة لا لَهبَ لها ثم تنطفىء .

واشتعال الرأس بالشيب أيضاً دليل على ضعف الجسم ووَهَن قُوته ؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة مُلوّنة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد فى بُصَيْلة الشعرة ، وتُمد الشعرة بهذا اللون ، وضعْفُ الجسم يُضعف هذه المادة تدريجياً ، حتى تختفى ، وبالتالى تخرج الشعرة بيضاء ، والبياض ليس لوناً ، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضَعْف الجسم وضَعْف الغُدَد التى تفرز هذا اللون .

لذلك ، نجد المترفين الذين يعنون كثيراً بشعرهم ويضعُون عليه المواد المختلفة أول ما يظهر الشيب عندهم تبيض سوالفهم ؛ لأن السوالف عادة بعد أنْ يُهذِّبها الحلاق تأخذ أكبر قدر من المواد الكاوية التى تؤثر على بُصيْلات الشعر وعلى هذه المادة الملونة ، والشعرة مثل الأنبوبة يسهل توصيل هذه المواد منها خاصة بعد الحلاقة مباشرة وما تزال الشعرة مفتوحة .

ثم يقول : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ ﴾ [مريم] أى : لم أكُنْ فيما مضى بسبب دعائى لك شقياً ؛ لأنى مُستجَابُ الدعوة عندك ، فكما أكرمتنى سابقاً بالإجابة فلم أكُنْ شقياً بدعائك ، بل كنتُ سعيداً بالإجابة ، فلا تُخلف عادتك معى هذه المرة ، واجعلنى سعيداً بأنْ تُجيبنى ، خاصة وأن طلبى منك طاعة لك ، فأنا لا أريد أنْ أخرج من الدنيا إلاَّ وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج ، ويقوم بهذه المهمة من بعدى .

وأنت قد تدعو الله لأمر تحبه ، فإذا لم يأتِ ما تحبه ولم تجب حزنت وكأنك شقيت بدعائك ، وقد يكون شقاءَ كذب ؛ لأنك لا تدرى الحكمة من المنع وعدم الإجابة ، لا تدرى أن الله تعالى يتحكم فى تصرفاتك .

وربما دعوْت بأمر تراه الخير من وجهة نظرك وفى علم الله أنه لا خَيْرَ لك فيه ، فمنعه عنك وعدَّل لك ما أخطأتَ فيه من تقدير الخير ، فأعطاك ربك من حيث ترى أنه منعك ، وأحسن إليك من حيث ترى أنه حرمك ، لأنك طلبتَ الخير من حيث تعلم أنت أنه خير ومنع الله من حيث يعلم أن الخير ليس فى ذلك .

ثم يذكر زكريا عليه السلام علَّة أخرى هى علة العلَل ولُبّ هذه المسألة ، فيقول :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ ﴾

(الموالى) من الولاء ، وهم أقاربه من أبناء عمومته ، فهم الجيل الثانى الذى سيأتى بعده ، ويخاف أنْ يحملوا المنهج ودين الله من

بعده ؛ لأنه رأى من سلوكياتهم فى الحياة عدم أهليتهم لحمل هذه المهمة .

﴿مِن وَرَائِي .. ۝٥﴾ [مريم] سبق أن أوضحنا فى سورة (الكهف) أن كلمة وراء تأتى بمعنى : خلف ، أو أمام ، أو بعد ، أو غير . وهنا جاءت بمعنى : من بعدى .

ثم يقول : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] والعاقر هى التى لا تلد بطبيعتها بداية ، أو صارت عاقراً بسبب بلوغها سنَّ اليأس مثلاً . ونحن نعلم أن التكاثر والإنجاب فى الجنس البشرى ينشأ من رجل وامرأة ، وقد سبق أنْ وصفَ زكريا حاله من الضعف والكبر ، ثم يخبر عن زوجته بأنها عاقرٌ لا تلد ؛ إذن : فأسباب الإنجاب جميعها مُعطَّلة .

وقوله : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] أى : هى بطبيعتها عاقر ، وهذا أمر مصاحب لها ليس طارئاً عليها ، فلم يسبق لها الإنجاب قبل ذلك .

ثم يقول : ﴿فَهَبْ لِي .. ۝٥﴾ [مريم] والهِبَة هى العطاء بلا مقابل ، فالأسباب هنا مُعطَّلة ، والمقدمات تقول : لا يوجد إنجاب ؛ لذلك لم يقُلْ مثلاً : أعطنى ؛ لأن العطاء قد يكون عن مقابل ، أما فى هذه الحالة فالعطاء بلا مقابل وبلا مقدمات ، فكأنه قال : يارب إنْ كنتَ ستعطينى الولد فهو هبَة منك لا أملك أسبابها ؛ لذلك قال فى آية أخرى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ[1] إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. ۝٣٩﴾ [إبراهيم]

(١) كان عُمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين بُشِّر بإسماعيل وإسحاق (١١٧) عاماً . قاله سعيد ابن جبير فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٩) .

ولنا وَقْفة وملْحظ فى قوله تعالى ﴿عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] حيث قال المفسرون : (على) هنا بمعنى (مع) و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان ، فلماذا عدل الحق تبارك وتعالى عن الخفيف إلى الثقيل ؟ لا بد أن وراء هذا اللفظ إضافةً جديدة ، وهى أن (مع) تفيد المعية فقط ، أما (على) فتفيد المعية والاستعلاء ، فكأنه قال : إن الكبَر يا رب يقتضى ألاَّ يوجد الولد ، لكن طلاقة قدرتك أعلى من الكِبَر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] كأن الظلم يقتضى أن يُعاقبوا ، لكن رحمة الله بهم ومغفرته لهم علَتْ على استحقاق العقاب .

وقوله : ﴿مِن لَّدُنكَ .. (٥)﴾ [مريم] أى : من عندك أنت لا بالأسباب (وَلِياً) أى : ولداً صالحاً يلينى فى حَمْل أمانة تبليغ منهجك إلى الناس لِتسلَم لهم حركة الحياة .

ثم يقول :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾

سبق أن أوضحنا أن الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم ، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوة والملْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، ونلحظ أنه لم يكتَف بقوله (يَرِثُنى) بل قال : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. (٦)﴾ [مريم] فلستُ أنا القمةَ فى الطاعة فى آل يعقوب ، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ [مريم] أى : مرضياً عنه منك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾

المتأمل لهذه القصة يجد هذه الآية قد اختصرت من القصة ما يفهم من سياقها ثقةً فى نباهة السامع ، وأنه قادر على إكمال المعنى ، فكأن معنى الآية : سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه ، فأجابه بقوله : ﴿ يَٰزَكَرِيَّا .. ۝٧ ﴾ [مريم]

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه ، فجاءت الإجابة مباشرة دون مُقدِّمات .

ومثال ذلك : ما حكاه القرآن من قصة سليمان ـ عليه السلام ـ وبلقيس ، قال سليمان : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝٣٩ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ[1] فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ۝٤٠ ﴾ [النمل]

فبيْنَ قوله : ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ۝٤٠ ﴾ [النمل] وقوله : ﴿ رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. ۝٤٠ ﴾ [النمل] كلام يقتضيه سياق القصة ، كأن نقول : فأذن له فذهب وأتى بالعرش ، لكن جاء الأسلوب سريعاً

---

(١) الطرْف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ۝٤٠ ﴾ [النمل] . أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/٤٠٠] .

ليتناسب مع سرعة الحدث فى إحضار عرش بلقيس من مكانه .

وقوله : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ .. ۝ ﴾ [مريم] البشارة : هى الإخبار بما يسرُّك قبل أن يجىء ليستطيل أمدَ الفرح بالشىء السَّار ، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب فى البُشْرى ، وقد تأتى الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه ، فكيف بك إذا بشَّرك الله تعالى ؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حَقٌّ وواقعٌ لا شكَّ فيه .

وقوله : ﴿ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ .. ۝ ﴾ [مريم] أى : وسماه أيضاً . ونحن نعلم أن للبشر اختيارات فى وَضْع الأسماء للمسميات ، ولهم الحرية فى ذلك ، فواحدة تُسمى ولدها (حرنكش) هى حرة ، والأخرى تسمى ابنتها الزنجية (قمر) هى أيضاً حرة .

إلا أن الناس حين يُسمُّون يتمنون فى المسمَّى مواصفات تَسرُّ النفس وتقرُّ العين ، فحين نُسمِّى سعيداً تفاؤلاً بأن يكون سعيداً فعلاً ، والاسم وُضع للدلالة على المسمى ، لكن ، أيملك هذا المتفائل أن يأتى المسمى على وَفْق ما يحب ويتمنى ؟ لا ، لا يملك ذلك ولا يضمنه ؛ لأن هناك قوة أعلى منه تتحكم فى هذه المسألة ، وقد يأتى المسمَّى على غير مُراده .

أما إذا كان الذى سمَّى هو الله تعالى فلابد أن يتحقق الاسم فى المسمَّى ، وينطبق عليه ، ولابُدَّ أنْ يتحقَّق مراده تعالى فى مَنْ سمَّاه ، وقد سمَّى الحق تبارك وتعالى ابن زكريا يحى فلا بُدَّ أن تنطبق عليه هذه الصفة ، ويحيى فعل ضده يموت ، إذن : فهو سبحانه القادر على أن يُحييه ، لكن يحييه إلى متى ؟ وكم عاماً ؟ الحياة هنا والعيش يتحقق ولو بمتوسط الأعمار مثلاً ، فقد أحياه وتحققت فيه صفة الحياة .

ولذلك استدل أهل المعرفة من تسميته يحيى على أن ابن زكريا سيموت شهيداً ليظل حياً كما سماه الله وقد كان .

وقوله : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم] السميُّ : اختلف العلماء في معناها فقالوا : تأتي بمعنى : نظير أو مثيل أو شبيه . وإما سمياً يعني : اسمه كاسمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم] فقالوا : سمياً هنا تحمل المعنيين : هل تعلم له نظيراً أو شبيهاً ؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ۝١١﴾ [الشورى] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص]

ويمكن أن نقول بهذا المعنى أيضاً في قصة يحيى عليه السلام ، إلا أنه يقع فيه شيء وهو : أن الله تعالى حينما قال في مسألة يحيى : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم] واعتبرناها بمعنى المثل أو النظير والشبيه ، فهذا يعني أنه لم يسبق يحيى واحد مثله في الصلاح والتقوى ، فأين - إذن - أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟ وأين إسماعيل وإسحق ؟

فهذا المعنى وإن كان السياق يحتمله في غير هذا الموضع إلا أنه لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى جعل من قَبْل يحيى مَنْ هو أفضل من يحيى ، أو مثله على الأقل .

أما المعنى الآخر فيكون : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم] أي : هل هناك مَنْ تسمى باسمه تعالى ؟ وهذا هو المعنى الذي يستقيم في قصة يحيى عليه السلام ؛ لأنه أول اسم وضعه الحق سبحانه على ابن زكريا ، ولم يكن أحدٌ تسمى به من قبل ، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم ، حتى قال الشاعر :

وسَمَّيتُه يَحْيى ليحيى فلم يكُنْ لِـردِّ قَضَـاءِ الله فيـه سَبِيلُ

ونقف هنا على آية من آيات الله فى التسمية ، حيث لم يجرؤ أحد حتى من الكفرة والملاحدة الذين يجاهرون بإلحادهم ويعلنون إنكارهم للخالق سبحانه ، لم يجرؤ أحدهم أن يسمى ولده (الله) ، وحرية اختيار الأسماء مكفولة ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على أن كفرهم عناد ولَجَجٌ ، وأنهم غير صادقين فى كُفْرهم ، ويعلمون أن الله موجود ؛ لذلك يخافون على أنفسهم وعلى أولادهم أنْ يُسمّوا بهذا الاسم .

إذن : كلمة (سَمِياً) فى مسألة الألوهية تُؤخَذ على المعنيين ، أما فى مسألة يحيى فلا تحتمل إلا المعنى الثانى .

وَهبْ أن الحق سبحانه وتعالى استعرض الأسماء السابقة فلم يجد فى الماضى من سُمِّى (الله) فأعلنها تحدياً : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم] ؟ فلم يحدث بعد هذا التحدى أنْ يُسمَّى أحد بهذا الاسم .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه ، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك فى أنْ يوُغل فى معرفة الوسيلة ، وكيف سيتم ذلك ، وتتحقق هذه البشارة حالَ كوْنه قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟

لكن ماذا يقصد زكريا من سؤاله ، وهو يعلم تماماً أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه ؟ الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى ، ولا يستدرك على الله ، وحاشاه أنْ يقصد ذلك ،

وإنما أطمعته البُشْرى فى أنْ يعرف الكيفية ، كما حدث فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ حينما كلَّمه ربه واختاره ، وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام فى أنْ يطلب الرؤيا ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

وكما حدث فى قصة ـ إبراهيم عليه السلام ـ لما قال لربه : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] وأبو الأنبياء لا يشكّ فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، ولكنه يريد أنْ يعرف هذه الطريقة العجيبة ، فالكلام ليس فى الحقيقة وجوداً وعدماً ، إنما فى كيفية وجود الحقيقة ، والكلام فى الكيفية لا دخْلَ له بالوجود .

فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُباشَر عملياً ، فأمره بما نعلم من هذه القصة : وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه ، ثم يضمهنّ إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها ، ثم أمره أنْ يُقطِّعهن أجزاء ، ثم يُفرِّق هذه الأجزاء على قمم الجبال ، ثم بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أنْ يدْعُوَهُن بنفسه ، وأن يصدر الأمر منه فتتجمع هذه القطع المبعثرة وتدبّ فيها الحياة من جديد ، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنه لم يفعل ، بل جعل مَنْ لا يستطيع ذلك يفعله . ويقدر عليه[1] .

فإنْ كان البشر يُعَدُّون أثر قدرتهم إلى الضعفاء ، فمَنْ لا يقدر على حَمْل شىء يأتى بمَنْ يحمله له ، ومَنْ يعجز عن عمل شىء يأتى بمَنْ يقوم به ، ويظل هو ضعيفاً لا يقدر على شىء ، أما الحق سبحانه وتعالى فيُعدِّى قوته بنفسه إلى الضعيف فيصير قوياً قادراً على الفعل .

---

(١) يقول تعالى فى هذا لإبراهيم : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة] .

فقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ⑧﴾ [مريم] ؟ سؤال عن الكيفية ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن .. ٢٦٠﴾ [البقرة] ؟ أى : بقدرتى على إحياء الموتى ، قال (بلَى) أى : نعم أومن ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ٢٦٠﴾ [البقرة] أى : إلى الكيفية التى يتم بها الإحياء .

أو : أن زكريا عليه السلام بقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ⑧﴾ [مريم] يريد أن يُوثِّق هذه البشرى ويُسجِّلها ، كما تَعد ولدك بأنْ تشترى له هدية فيُلِحّ عليك فى هذه المسألة ليؤكد وَعْدك له ، ويستلذ بأنه وَعْد مُحقَّق لا شكَّ فيه ، ثم يذكر زكريا حيثيات تعجُّبه من هذا الأمر فيقول :

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧﴾ [مريم]

عتياً : من عَتَا يعنى طغى وتجبر وأفسد كثيراً ، والعُتُو : الكفر ، والعَتِىّ : هو القوى الذى لا يُغالب ؛ لذلك وصف الكِبَر الذى هو رمز للضعف بأنه عَتِى ؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْف لا يقدر أحد على مقاومته ، أو دفعه أبداً ، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير (والفيتامينات) .

ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام ، وتُلِح عليه ؛ لأنه دعا الله كثيراً أنْ يرزقه الولد ، ففى موضع آخر يقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء] . فزكريا عليه السلام يريد الولد الذى يَرِثه وهو موروث ؛ لأن الله تعالى خير الوارثين .

لكن يأتى الرد : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا[1] لَهُ زَوْجَهُ..(٩٠)﴾ [الانبياء] ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. (٩٠)﴾ [الانبياء] التى ستنجب هذا الولد ، قال : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ .. (٩٠)﴾ [الانبياء] فصلاح الزوجة ليس شرطاً فى تحقُّق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة .

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التى لا يُعجزها شىء ، فهو سبحانه قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر ، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حَدٍّ ، كما لو تعطَّل عندك أحد الأجهزة مثلاً فذهبتَ به إلى الكهربائى لإصلاحه فوجد التلفَ به كبيراً ، فينصحك بتركه وشراء آخر جديد ، فلا حيلةَ فى إصلاحه .

لذلك أصلح الله تعالى لزكريا زوجه حتى لا نظنَّ أن يحيى جاء بطريقة أخرى ، والزوجة ما تزال على حالها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾

(قَالَ) أى : الحق تبارك وتعالى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩)﴾ [مريم] أى : أنه تعالى قال ذلك وقضى به ، فلا تناقش فى هذه المسألة ، فنحن أعلَم بك وما أنتَ فيه من كبَر ، وأن زوجتك عاقر ، ومع ذلك سأهبك الولد .

---

(١) قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجُعلت ولوداً . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلهَا حسنة الخلق . قال القرطبى : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً . (تفسير القرطبى ٤٥١٦/٦) . وقال ابن كثير فى تفسيره (١٩٣/٣) : « والأظهر من السياق الأول » .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٩)﴾ [مريم] وفى آية أخرى يقول فى آية البعث : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم] فلا تظن أن الأمر بالنسبة لله تعالى فيه شىء هَيِّن وشىء أَهْوَن ، وشىء شاقّ ، فالمراد بهذه الألفاظ تقريب المعنى إلى أذهاننا .

والحق سبحانه يخاطبنا على كلامنا نحن وعلى منطقنا ، فالخَلْق من موجود أهون فى نظرنا من الخلق من غير موجود ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ[1] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق]

إذن : فمسألة الإيجاد بالنسبة له تعالى ليس فيها سَهْل وأسْهَل أو صَعْب وأصعب ، لأن هذه تُقال لمَنْ يعمل الأعمال علاجاً ، ويُزاولها مُزَاولة ، وهذا فى أعمالنا نحن البشر ، أما الحق تبارك وتعالى فإنه لا يعالج الأفعال ، بل يقول للشىء كُنْ فيكون : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

ثم يُدلِّل الحق سبحانه وتعالى بالأقْوى ، فيقول : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم] فلأنْ يوجد يحيى من شىء أقلّ غرابة من أن أوجد من لا شىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)﴾

(١) فى لبس . أى : فى شك ، ولبس الشىء : خلطه وعمّاه وأبهمه وجعله مُشْكلاً مُحيِّراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

(آية) أى : علامة على أن امرأته قد حملتْ فى يحيى ، وكأن زكريا عليه السلام يتعجل الأمور ولا صبرَ له طوال تسعة أشهر ، بل يريد أن يعيش فى ظلِّ هذه النعمة ، وكأنها واقع لا ينفكّ لسانه حامداً شاكراً عليها ، وتظل النعمة فى باله رغم أن ولده ما يزال جنيناً فى بطن أمه .

فيجيبه ربه : ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩﴾ [مريم] علامتك ألاَّ تُكلِّم الناس ثلاث ليال و (ألاَّ) ليست للنهى عن الكلام ، بل هى إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته ، فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون علَّة تمنعه من الكلام ، كخرس أو غيره .

لذلك قال : ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩﴾ [مريم] أى : سليماً مُعافىً ، سوىّ التكوين ، لا نقص فيك ، ولا قصور فى جارحة من جوارحك . وهكذا لا يكون عدم الكلام عَيْباً ، بل آية من آيات الله .

وهناك فَرْق بين أمر كونىٍّ وأمر شرعى ، الأمر الكونىُّ هو ما يكون وليس لك فيه اختيار فى ألاَّ يكون ، والأمر الشرعىّ ما لك فيه اختيار من الممكن أن تطيعه فتكون طائعاً ، أو تعصيه فتكون عاصياً .

وهذا الذى حدث لزكريا أمر كونى ، وآية من الله لا اختيار له فيها ، وكأن الحق سبحانه يعطينا الدليل على أنه يوجد منْ لا مظنّة أسباب ، وقد يبقى الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبَّب ، فاللسان هنا موجود ، وآلات النطق سليمة ، ولكنه لا يقدر على الكلام .

فتأمّل طلاقة القدرة ، فقد شاء سبحانه لزكريا الولد بغير أسباب ، وهنا منع مع وجود الأسباب ، فكلا الآيتين سواء فى قدرته تعالى ومشيئته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

إذن : حدثتْ هذه المسألة لزكريا وهو فى (المحرَاب) أى : مكان العبادة والصلاة ، وعادةً ما يكون مرتفعاً على شرف عما حوله ، وكان مصلى الأنبياء والصالحين ، وسُمى محراباً لأنه يحارب فيه الشيطان بكيْده ووسوسته . وقد ذُكر المحراب أيضاً فى قصة داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ص]

وقد وردتْ هذه اللقطة من قصة زكريا عليه السلام فى آية أخرى دلَّتْ أيضاً على أن البشارة بيحيى كانت وهو فى محرابه ، حيث قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [مريم] قلنا : إن الوَحْى له معنى لُغَوىّ ومعنى شرعى ، الوحى لُغةً : الإخبار بطريق خفىٍّ . وعلى هذا المعنى يأتى الوحى بطرق متعددة ، فالله تعالى يُوحِى للرسل والأنبياء ، ويُوحى لغير الرسل من المصطفين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] أى : أخبرها بطريق خفىٍّ ، هو طريق الإلهام .

ويُوحى إلى الملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحى للصالحين من أتباع الرسل : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

ويتعدَّى الإعلام بخفاء إلى الحشرات : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

بل يتعدَّى الوحى إلى الجماد فى قوله تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يُوحى الشياطين بعضهم إلى بعض : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

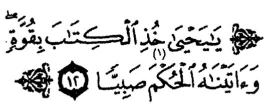
ويُوحون إلى أوليائهم : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام] لأن الشيطان لا يأتى الإنسان إلا بطريق خفىٍّ ، ووسوسة فى خواطره .

أما الوحى الشرعى فهو إعلام من الله وحده إلى نبى يدَّعى النبوة ومعه معجزة . إذن فالوحى : إعلام خفىٌّ من الله للرسول .

فقوله تعالى : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. (١١)﴾ [مريم] أى : قال لهم بطريق الإشارة ؛ لأنه لا يتكلم ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾ [مريم] بُكرة : أول النهار ، وعَشياً : آخره ، يعنى : طوِّقوا النهار بالتسبيح بداية ونهاية . وكأن زكريا عليه السلام قد بدتْ عليه علامات الفرح

والانبساط بالبُشْرى ، ورأى أن شُكْره لله وتسبيحه لا ينهض بهذه النعمة ، فأمر قومه أنْ يُسبِّحوا الله معه ، ويشكروه معه على هذه النعمة ؛ لأنها لا تخصُّه وحده ، بل هى عامة لكل القوم .

ثم يقول تعالى :



نلحظ أن الآية الكريمة انتقلتْ بنا نَقْلة واسعة ، وطوَتْ فترة طويلة من حياة يحيى - عليه السلام - فقد كان السياق يتحدث عنه وهو بُشْرى لوالده ، وهو ما يزال فى بطن أمه جنيناً ، وفجأة يخاطبه وكأنه أصبح أمراً واقعاً : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] فقد بلغ مبلغ النُّضْج ، وأصبح أهْلاً لحمْل مهمة الدعوة ، إذن : المسألة مأخوذة مأخَذ الجدِّ ، وهى حقيقة واقعة .

وقوله : ﴿ خُذِ الْكِتَابَ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى : التوراة ، وفيها منهج الله الذى يُنظِّم لهم حركة حياتهم ﴿ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى : بإخلاص فى حِفْظه وحِرْص على العمل به ؛ لأن العلم السماوى والمنهج الإلهى الذى جاءكم فى التوراة ليس المراد أن تعلمه فقط بل وتعمل به .

وإلا فقد قال تعالى فى بنى إسرائيل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ

---

(١) الحكم : الأحكام والمعرفة بها . قال مجاهد : الفهم . وقال معمر بن راشد : بلغنى أن الصبيان قالوا ليحى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : ما للعب خلقت . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٤٨٥] .

ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة] فقد حَمَّلهم الله التوراة ، فلم يحملوها ولم يعملوا بها .

والقوة : هى الطاقة الفاعلة التى تدير دولاب الحياة حركةً وسكوناً ، وخُذْ مثلاً سفينة الفضاء التى تنطلق إلى الفضاء الخارجى ، وتظل تدور فيه عدة سنوات وتتساءل : من أين لها بالوقود الذى يُحرّكها طوال هذه المدة ؟ والحقيقة أنها لا تحتاج إلى وقود إلا بمقدار ما يُخرجها من مدار الجاذبية الأرضية ، فإذا ما خرجت من نطاق الجاذبية وهى متحركة تظل متحركة ولا تتوقف إلا بقوة توقفها ، وكذلك الساكن يظل ساكناً إلى أنْ تأتىَ قوة تحركه .

إذن : القوة إمّا أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرك وتصده ، ومن ذلك ما نراه فى السكك الحديدية من مصدَّات تُوقف القطارات ؛ لأنك إنْ أردتَ أن توقف القطار تمنع عنه الوقود ، لكن يظل به قوة دفع تحركه تحتاج إلى قوة معاكسة توقفه ، وهذا ما يسمونه قانون العطالة . يعنى : إن كان الشىء متحركاً فيحتاج إلى قوة توقفه ، وإن كان ساكناً يحتاج إلى قوة تحركه .

ومن ذلك قانون القصور الذاتى الذى تعلمناه فى المدارس ، وتلاحظه إذا تحركتْ بك السيارة تجد أن جسمك يندفع للخلف ؛ لأنها تحركتْ للأمام وأنت ساكن ، فإنْ توقفتْ السيارة تحرَّك جسمك للأمام لأنها توقفت وأنت متحرك . إذن : هذه الأشياء التى تتحرك فى الكون أو الساكنة نتيجة قوة .

فقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] لأن الكتاب فيه

أوامر وفيه نَوَاه ، يأمر بالخير وينهاك عن الشر ، فإنْ أمركَ بالخير وأنت لا تفعله تحتاج إلى قوة دَفْع تدفعك إلى الخير ، وكأنك كنتَ ساكناً تحتاج إلى قوة تحركك ، وإنْ نهاك عن الشر وأنت تفعله فأنت فى حاجة إلى قوة تمنعك وتوقف حركتك فى الشر . والمنهج هو هذه القوة التى تُحرِّكك إلى الخير وأنت ساكن ، وتُسكنك عن الشر وأنت متحرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) ﴾ [مريم] الحكم : العلم والفهم للتوراة ، أو الطاعة والعبادة ، ﴿ صَبِيًّا (١٢) ﴾ [مريم] فى سِنٍّ مبكرة[1] ؛ لأن المسألة عطاء من الله لا يخضع للأسباب ، فجاء يحيى عليه السلام مُبكِّر النضج والذكاء ، يفوق أقرانه ، ويسبق زمانه ، وقد أُثر عنه وهو صغير أنْ دعاه أقرانه للعب فقال لهم : « ما للعب خُلقْنا »[2] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) ﴾

ولأن يحيى جاء إلى الدنيا حال كِبَر وضعف والديه ، وهو كطفل يحتاج مَنْ يشمله بالعطف والحنان ، ويُعوِّضه حنان الوالدين ، ويحتاج إلى مَنْ يُعلِّمه ويُربِّيه ؛ لذلك تولَّى الحق سبحانه وتعالى هذه المهمة ، فهو سبحانه خالقه ومُسمِّيه ومُتولِّيه فوهبه حناناً منه

---

(١) قال قتادة ومقاتل : وهو ابن ثلاث سنين . [الدر المنثور ٥/٤٨٤] وعزاه لعبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم . وأورد حديثاً عن ابن عباس عزاه لأبى نعيم وابن مردويه والديلمى أن رسول الله ﷺ قال : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين » .

(٢) أخرجه الحاكم فى تاريخه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال يحيى : ما للعب خلقنا . اذهبوا نصلى » . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٤٨٥] .

سبحانه ﴿مِّن لَّدُنَّا .. ⑬﴾ [مريم] من عندنا ؛ لأن طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبتْ .

وقوله : ﴿وَزَكَاةً .. ⑬﴾ [مريم] أى : طهارة من الذنوب وصفاءَ نفْسٍ وبركة ، وهذه كلها نتيجة التربية الإلهية بمنهج الله الذى يرسم له حركته فى الحياة : افعل كذا ولا تفعل كذا .

﴿وَكَانَ تَقِيًّا ⑬﴾ [مريم] أى : استجاب لهذا الحنان ، وأثمرت فيه هذه التربية فكان تقياً ، أى : مُنفذاً لأوامر الله مُجتنباً لنواهيه ، وبذلك وقَى نفسه من صفات الجلال من الله تعالى .

وقلنا : إن التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما تتقيه مانعاً يحميك ويبعدك عن إيذائه ، فنقول : اتقِ الله واتقِ النار ، كيف ذلك ونحن نريد أن نصل إلى معيته سبحانه ؟

نقول : اتق الله أى : اجعل بينك وبين صفات جلاله وجبروته وقايةً تحميك من جبروته وجباريته وقهره ، فلستْ مطيقاً لأدنى شىء من العذاب ، والنار من جنود الله ومظهر من مظاهر قهره ، فاتقاء النار جزء من اتقاء الله ، والوقاية التى تحميك من صفات الجبروت والجلال هى الطاعة بامتثال الأوامر والنواهى .

ثم يقول تعالى :

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ⑭﴾

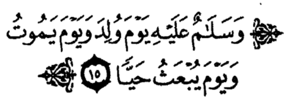
فرغم أن يحيى عليه السلام جاء أبويْه فى حال كِبَرهما وضعفهما ، ولم يجد منهما الحنان الكافى والتربية المناسبة ، ولم

يشعر معهما بالأبوة الكاملة ، فكان دورهما فى حياته ثانوياً ، وحمايلهم عليه باهتة متواضعة ، مع هذا كله كان باراً بهما حانياً عليهما . وقال عنه أيضاً : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم]

وصفة الجبروت وصفة العصيان لا يُتصوَّران من الولد على والديه ، إلا حين يرى من أبيه شروداً عنه وانصرافاً عن رعايته ، وحين يرى من أمه انشغالاً عن تربيته ، فهى تاركة له غير مُراعية لحقه .

لذلك نرى صوراً من هذا الجبروت ومن هذا العصيان ، ونسمع مَنْ يقسو على أمه وعلى أبيه ؛ لأنه لم يجد منهما العطف والحنان والرعاية ، فتقطعتْ بينهما أواصر الأبوة . ويبدو أن زكريا حكى لولده ما حدث ، وقصَّ عليه قصّته ، فتفهَّم الولد دور والديه ونفى عنهما أىَّ تقصير ، فكان بهما باراً رحيماً ، ولهما طائعاً متواضعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :



هذه مسائل ثلاث تُعَدُّ أعلام حياة للإنسان : الميلاد ، والموت ، والبعث . وقد خَصَّه الله بالسلام يوم مولده ؛ لأنه وُلد على غير العادة فى الميلاد فأُمّه عاقر قد أسنتْ ، ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس ولم يعترض أحد على ولادتها ، وهى على هذا الوصف ، فلم يتجرأ أحد عليها ؛ لأن ما حدث لها كان آيةً من آيات الله وقد بشّر الله بها

زكريا لتكون البُشْرى إعداداً ومقدمة لهذا الحدث العجيب .

وخَصَّه بالسلام يوم يموت ؛ لأنه سيموت شهيداً ، والشهادة غير الموت ، الشهادة تعطيه حياة موصولةً بالحياة الأبدية الخالدة . وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حياً .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ[1] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾

وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى ؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأتِ به ، وهو كافلها ومُتولّى أمرها ، فتعجب أنْ يرى عندها رِزْقاً لم يحمله إليها ، وهى مقيمة على عبادتها فى محرابها ، فقال لها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وكأن هذه أول بداية قانون : من أين لك هذا ؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب ، بل هو سبحانه يرزق مَنْ يشاء متى شاء وبغير حساب .

وشاءتْ إرادة الله أن تنطقَ مريم بهذه المقولة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شيء ،

---

(١) انتبذ : اعتزل ورمى نفسه بعيداً عن الناس . أى : أن مريم اعتزلت أهلها فى مكان شرقى . [القاموس القويم ٢/٢٥١] .

وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد حينما تشعر بالحَمْل من غير زَوْج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاءٌ من الله .

وكذلك نبَّهتْ هذه الآية زكريا ـ عليه السلام ـ إلى فَضْل الله وسعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبى الله ، ولكن هناك قضايا فى النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها ؛ لذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدى ، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه .

إذن : فمريم هى التى أوحَتْ لزكريا بهذا الدعاء ، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى ؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم ، فلا تنزعج من حَمْلها ، وتردّ هذه المسألة إلى أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً ، وإلاَّ فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك ، وتتصور أن هذا الحمْل نتيجة شئ حدث لم تشعر به ، أو كانت نائمة مثلاً .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقطع عنها كل هذه الشكوك ، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها فى طعام لم يَأْتِ به أحد إليها ، وفى حَمْل زوجة زكريا وهى عاقر لا تلد .

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ .. ﴿١٦﴾﴾ [مريم]

الكتاب هو القرآن الكريم ، أى : اذكُر يا محمد فى كتاب الله الذى

أوحاه إليك مما تذكر قصة مريم ، وقد سبق الحديث عن هذه القصة في سورة (آل عمران) لما تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن نَذْر أمها لما في بطنها لخدمة بيت المقدس ، ولم يكن يصلح لخدمة بيت المقدس إلا الذكْران الذين يتحمَّلون مشقة هذا العمل ، فلما وضعتْها أنثى لم يوافق ظنَّها إرادة الله ، ولم تستطع مريم خدمة البيت مكاناً أفرغتْ نفسها لخدمته قيماً ، وديناً حملتْ نفسها عليه حَمْلاً ، حتى إنها هجرتْ أهلها وذهبت إلى هذا المكان الذى اتخذته خُلْوة لها لعبادة الله بعيداً عن أعيُن الناس .

ومريم هى ابنة عمران ، وقد قال القرآن فى خطابها : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] ولذلك حدث لَبْسٌ عند كثير من الناس ، فظنوها أخت نبى الله موسى بن عمران وأخت هارون أخى موسى عليهما السلام .

والحقيقة أن هذه المسألة جاءتْ مصادفة اتفقتْ فيها الأسماء ؛ لذلك لما ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها : إنكم تقولون : إن مريم هى أخت موسى وهارون ، مع أن بين مريم وعمران أبى موسى أحد عشر جيلاً !!

فقال رسول الله ﷺ : « أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يتفاءلون بذكر الأسماء خاصة الأنبياء فيُسمّون على أسمائهم عمران ويسمون على أسمائهم هارون »[1] .

حتى ذكروا أنهم فى جنازة بعض العلماء سار فيها أربعة آلاف

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٣٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٥٥) من حديث المغيرة ابن شعبة ، قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس .

رجل اسمهم هارون . إذن : فالأسماء هنا مصادفة ، فهى ابنة عمران ، لكن ليس أبا موسى ، وأخت هارون ، لكن ليس هو أخو موسى .

وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم مريم وخصَّها وشخَّصها باسمها واسم أبيها ، وسبق أنْ أوضحنا أن التشخيص فى قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومُفْردة بين نساء العالم بشىء لا يحدث ولن يحدث إلا لها ، فهذا أمر شخصى لن يتكرر فى واحدة أخرى من بنات حواء .

أما إنْ كان الأمر عاماً يصح أنْ يتكرَّر فتأتى القصة دون تشخيص ، كما فى حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر ، وهما زوجتان لنبيين كريمين ، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقْر داره ، فالمراد هنا ليس الأشخاص ، بل المراد بيان حرية العقيدة ، وأن المرأة لها فى الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية ، وأنها غيرُ تابعة فى عقيدتها لأحد ، سواء أكانت زوجة نبى أم زوجة إمام من أئمة الكفر .

وقوله تعالى : ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ⑯﴾ [مريم]

﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا .. ⑯﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عنهم ، من نبذ الشىء عنه أى أبعده ، فكأن أُنْسها لا بالأهل ، ولكن أُنْسها كان بربِ الأهل . والقرآن يقول : ﴿مِنْ أَهْلِهَا .. ⑯﴾ [مريم] ولم يقُلْ : من الناس ، فقد تركتْ مريم أقرب الناس إليها وأحبَّهم عندها وذهبت إلى هذا المكان .

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ⑯﴾ [مريم] لكن شرقىّ أىّ شىء ؟ فكل مكان

يصح أن يكون شرقياً ، ويصح أن يكون غربياً ، فهى - إذن - كلمة دائرة فى كل مكان . لكن هناك علَم بارز فى هذا المكان ، هو بيت المقدس ، فالمراد إذن : شرقى بيت المقدس ، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان .

لكن ، لماذا اختارتْ الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات ؟ قالوا : لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس(١) ، لأنها سِمَةَ النور الماديّ الذى يسير الناس على هُدَاه فلا يتعثرون ، وللإنسان فى سَيْره نوران : نور ماديّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح ، وهو النور الذى يظهر له الأشياء من حَوله ، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه .

وكذلك له نور من منهج الله يهديه فى مسائل القيم ، حتى لا يتخبّط تائهاً بين دُروبها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥)﴾ [النور] ثم يقول بعدها : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

أى : نور السماء الذى ينزل بالوحى لهداية الناس .

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٦١/٥) : « إنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها . حكاه الطبرى . وحُكى عن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ [مريم] . فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة » .

الحجاب : هو الساتر الذى يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه ، فمـا فائدة أنْ تتخـذ بينها وبين أهلهـا ستْراً بعـد أن ابتعـدتْ عنهم ؟ نقول : انتبـذتْ من أهلها مكاناً بعـيداً ، هذا فى المكان ، إنمـا لا يمنع أنْ يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد ، فهناك إذن مكان ومكين .

والحجـاب قد يكون حـجاباً مُفْـرداً فهـو ساتر فقـط ، وقد يكون حجاباً مـستوراً بحجاب غيـره ، فهو حجاب مُـركّب ، كما يصنع أهل الترف الآن السـتائر من طبـقتيـن ، إحداهما تسـتر الأخـرى ، فيكون الحجاب نفـسه مَسْتوراً ، ومـن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. (١٧)﴾ [مريم]

كلمة الروح فى القـرآن الكريم لها إطلاقات مُتـعدّدة ، أولها الروح التى بها قِوام حياتنا المادية ، فإذا نفخَ الله الروح فى المادة دبَّتْ فيها الحياة والحِسّ والحركة ، ودارت كل أجهزة الجسم ، وهذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

لكن ، هل هذه الحـياة التـى تسرى فى المـادة بروح من الله هى الحيـاة المقصـودة من خَلْق الله للخَلْق ؟ قالوا : إنْ كانت هذه الحـياة هى المـقصودة فـما أهونـها ؛ لأن الإنسان قـد يمرُّ بـها ويموت بـعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد سنة ، أو عدة سنوات .

إذن : هى حياة قصيرة حقيرة هيِّنة ، هى أقرب إلى حياة الديدان والهوام ، أما الإنسان الذى كـرّمه الله وخلق الكون من أجله فلا بُدَّ أن

تكون له حياة أخرى تناسب تكريمَ الله له ، هذه الحياة الأخرى الدائمة الباقية يقول عنها القرآن : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

﴿ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الحقيقية ، أما حياتك الدنيا فهى مُهدّدة بالموت حتى لو بلغتَ من الكبر عتياً ، فنهايتك إلى الموت ، فإنْ أردتَ الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها موت فهى فى الآخرة .

فإذا كان الخالق - تبارك وتعالى - جعل لك روحاً فى الدنيا تتحرك بها وتناسب مُدّة بقائك فيها ، ألاَ يجعل لك فى الآخرة رُوحاً تناسبها ، تناسب بقاءها وسَرْمديتها ، والقرآن حينما يتحدث عن هذه الروح يقول للناس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

فكيف يدعوهم لما يُحييهم ، ويُخاطبهم وهم أحياء ؟ نعم ، هم أحياء الحياة الدنيا ، لكنه يدعوهم إلى حياة أخرى دائمة باقية ، أما مَنْ لم يستجب لهذا النداء ويسعى لهذه الحياة فلن يأخذ إلا هذه الحياة القصيرة الفانية التى لا بقاءَ لها .

وكما سمَّى الله السِّرَّ الذى ينفخه فى المادة فتدبّ فيها الحركة والحياة « روحاً » ، كذلك سمَّى القيم التى تحيا بها النفوس حياة سعيدة « روحاً » ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] أى : القرآن الكريم .

كما سَمَّى الملك الذى ينزل بالروح رُوحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] وهو جبريل عليه السلام .

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. ⑰﴾ [مريم] أى : جبريل عليه السلام . ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ⑰﴾ [مريم] معنى تمثَّل : أى : ليستْ هذه حقيقته ، إنه تمثَّل بها ، أما حقيقته فنورانية ذاتِ صفات أخرى ، وذات أجنحة مَثْنى وثُلاَث ورُبَاع ، فلماذا ـ إذن ـ جاء الملَكُ مريمَ فى صورة بشرية ؟

لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقىَ الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته ، فلكل منهما قانونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولابُدَّ فى لقائهما أنْ يتصوَّر الملَك فى صورة بشر ، أو يُرقَّى البشر إلى صفات الملائكة ، كما رُقى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

لذلك ، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملَكاً رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ⑮﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨﴾ [الأنعام] إذن : لا يمكن أن يلتقى الملَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب .

جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى مريم فى صورة بشرية لتأنس به ، ولا تفزع إنْ رأتْه على صورته الملائكية ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا .. ⑰﴾ [مريم] أى : من جنسها ﴿سَوِيًّا ⑰﴾ [مريم]

أى : سوىّ الخِلْقة والتكوين ، وسيماً ، قد انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه ، كما نرى فى بعض الناس .

وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها ، وأيضاً ليثبت أنها العذراء العفيفة ؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسيم ما أبدتْ له إعجاباً ولا تلطفتْ إليه فى الحديث ، ولا نطقتْ بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه ، بل قالت كما حكى القرآن :

﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾

فلم تُظهِر له إعجاباً ، ولا مالتْ إليه بكلمة واحدة ، وهذا دليل على عِفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها .

وقولها : ﴿ أَعُوذُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ أى : ألجأ وأعتصم بالله منك ؛ لأننى أخاف أنْ تفتك بى ، أو تعتدى علىَّ وأنا ضعيفة لا حَوْلَ لى ولا قوة إلا بالله ، فأستعيذ به منك . والمؤمن هو الذى يحترم الاستعاذة بالله ويُقدِّرها ، فإنْ استعذتَ بالله أعاذك ، وإن استجرتَ بالله أجارك .

ولما خطب النبى ﷺ امرأة[1] ، وكانت على شىء من الحسن أثار غَيْرة نسائه ، فخشينَ أنْ تغلبهن على قلب رسول الله ، فدبَّرْنَ لها أمراً يبعدها من أمامهن ، فقُلْنَ لها - وكانت غِرَّة ساذجة - أن رسول الله ﷺ يحب إذا اقترب منه إنسان أن يقول له : أعوذ بالله منك ، فما كان من المرأة إلا أنْ قالت هكذا لرسول الله عندما دخلت عليه ، فقال لها : « لقد استعذت بمعيذ ، الحقى بأهلك »[2] .

فقول مريم : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم] لأن المؤمن التقىّ هو الذى يخاف الله ، ويحترم الاستعاذة به ، وكأنها

---

(١) جاء فى تاريخ الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (١٢٣/٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٣) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

قالتْ : إنْ كنت تقياً فابتعد عنى ، واختارت الاستعاذة بالرحمن لما عندها من الأمل إنْ لم يكُنْ تقياً مؤمناً أن يبتعد عنها رحمةً بها وبضعفها ، ولجأتْ إلى الرحمن الرحيم الذى يحميها ويحرسها منه .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾

قال : ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] ولم يقلْ رسول الله ؛ لأن الربَّ هو المتولّى للتربية الذى يُحسنها ويصونها من الفساد ، فعطاء الربوبية عطاء مادىّ ، أما عطاء الألوهية فهو عطاء معنوى قِيَمى هو العبادة ، فأنا رسول ربك الذى يتولاّك ويرعاك ويحرسك فلا تخافى .

وقوله : ﴿ لأَهَبَ لَكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] يفهم منه أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة للأسباب التكوينية ، فالهبة فى هذه الحالة هبة حقيقية مَحْضَة ، فقد قلنا فى قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامرأته عاقر ، لكن على أية حال فالجهازان موجودان : الذكورة والأنوثة ، لكن فى حالة مريم فهى أنثى بلا ذكر ، فهنا الهبَة المحضة ، والمعجزة الحقيقية .

وقوله : ﴿ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ أى مُنقًّى مُطهّر صافى الخِلْقة .

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم :

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(أنَّى) استفهام عن الكيفيات التى يمكن أن تتم بها هذه المسألة ، وتعجُّب كيف يحدث ذلك .

وقوله : ﴿ يَمْسَسْنِى .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح ، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل : الوسيلة الأولى : هى الزواج الشرعى الذى شرعه الله لعباده للتكاثر وحِفْظ النسل ، وهو إيجاب وقبول ، وعقد وشهادة ، وهذا هو المسّ الحلال .

الوسيلة الثانية : أنْ يتم هذا اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْباً عنها . وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم] لا فى الحلال ، ولا فى الحرام ، وأنا بذاتى ﴿ لَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم] إذن : فمن أين لى بالغلام ؟

وكلمة : مسّ جاءتْ فى القرآن للدلالة على الجماع ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ .. ﴿٢٣٦﴾ ﴾ [البقرة] فالمراد بالمسّ هنا الجماع ، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى : ﴿ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] بأنه الجماع ؛ لأن القرآن أطلق المسَّ ، وأراد به النكاح ، والمسُّ فعل من طرف واحد ، أما الملامسة فهى مُفَاعلة بين اثنين ، فهى من باب أَوْلَى تعنى : جامعتم .

وقولها : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم] البغىُّ : هى المرأة التى تبغى الرجال . والبِغَاء : هو الزنا ، والبَغِىّ : التى تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم ، وربما تُكرههم على هذه الجريمة .

وقولها : ﴿ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم] مبالغة فى البَغْى وهو الظلم ، واختارتْ صيغة المبالغة بَغِىّ ولم تقُلْ باغية ؛ لأن باغية تتعلق بحقوق ما حول العِرْض ، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة فى هذا الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [مريم] أى : أنا أعرف ما أنت فيه من كبَر السن ، وأن امرأتك عاقر لا تلد ، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه ، وهو وحده الذى يملك التنفيذ ، فلِمَ التعجب إذن ؟

وهنا نجد بعض المتوركين على القرآن يعترضون على قوله تعالى : (كَذَٰلِكَ) بالفتح فى قصة زكريا وبالكسر فى قصة مريم (كذلكِ) ، والسياق والمعنى واحد ، وأيُّهما أبلغ من الأخرى ، وإنْ كانت أحدهما بليغة فالأخرى غير بليغة ؟

وهذا الاعتراض منهم ناتج عن قصور فَهْمهم لكلام الله ، فكلمة (كذلك) عبارة عن ذا اسم إشارة ، وكاف الخطاب التى تُفتح فى خطاب المذكر ، وتُكسر فى خطاب المؤنث .

وهنا أيضاً قال : (ربك) أى : الذى يتولى تربيتك ورعايتك ، والذى يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربِّى .

وقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١) ﴾ [مريم] كما قال فى مسألة البعث بعد الموت : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] فكلمة هيِّن وأهْوَن بالنسبة للحق ـ تبارك وتعالى ـ لا تُؤخَذ على حقيقتها ؛ لأن هيِّن وأهوَنَ تقتضى صعب وأصعب ، وهذه مسائل تناسب فِعْلَ الإنسان فى معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته ، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هيِّن وأهون منه ؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال مُعَالجةً ، ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، فقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ.. (٢١) ﴾ [مريم] أى : بمنطقكم أنتم إنْ كنت قد خلَقْتكم من غير شىء ، فإعادتكم من شىء موجود أمر هَيِّن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١) ﴾ [مريم]

هل كان الغرض من خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظهِر الحق سبحانه قدرته فى الخلق وطلاقة قدرته فقط ؟ لا ، بل هناك هدف آخر ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢١) ﴾ [مريم] أى : أمراً عجيباً ، يخرج عن مألوف العادة والأسباب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الذكاء ، فالآية لا تُقال إلا للشىء الذى يخرج عن معتاد التناول .

والآية هنا أن الخالق ـ تبارك وتعالى ـ كما خلق آدم ـ عليه السلام ـ من غير أب أو أم ، وخلق حواء من غير أم ، خلق عيسى ـ عليه السلام ـ من أم دون أب ، ثم يخلقكم جميعاً من أب وأم ، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما فيجعل مَنْ يشاء عقيماً .

إذن : فهذا أمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه . فالآية للناس فى أنْ يعلموا طلاقة قدرته تعالى فى الخَلْق ، وأنها غير خاضعة للأسباب ، وليستْ عملية ميكانيكية ، بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد .

لكن ، أكانتْ الآية فى خَلْق عيسى عليه السلام أَمْ فى أمه ؟ كان من الممكن أنْ يوجد عيسى من أب وأم ، فالآية - إذن - فى أمه ، إنما هو السبب الأصيل فى هذه الآية ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] فعيسى ومريم آية واحدة ، وليسا آيتين ؛ لأنهما لا ينفصلان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١) ﴾ [مريم] ووجْه الرحمة فى خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة ، أنه سبحانه يرحم الناس من أنْ يشكُّوا فى أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها ، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر ، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة للخالق سبحانه ، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتى فى الخَلْق من شىء ، ومن بعض شىء ، ومن لا شىء .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم] أى : مسألة منتهية لا تقبل المناقشة ، فإياك أن تناقش فى كيفيتها ؛ لأن الكلام عن شىء فى المستقبل إنْ كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألاَّ يتم مراده لأىِّ سبب من الأسباب كأن تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، ويأتى غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك ، إذن : فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل .

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذى يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع ، فقال تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم]

ولما تكلمنا عن تقسيمات الأفعال بين الماضى الذى حدث قبل الكلام ، والمضارع الذى يحدث فى الحال ، أو فى الاستقبال قلنا : إن هذه الأفعال بالنسبة للحق سبحانه تنحل عنها الماضوية والحالية والاستقبالية .

فإذا قال تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [الفتح] فهل كان الحق سبحانه غفوراً رحيماً فى الماضى ، وليس كذلك فى الحاضر والمستقبل ؟ لا ، لأن الحق سبحانه كان ولا يزال غفوراً رحيماً ، فرحمتُه ومغفرتُه أزلية حتى قبل أنْ يوجدَ مَنْ يغفر له ومَنْ يرحمه .

لذلك جاء الفعل بصيغة الماضى ، فالصفة موجودة فيه سبحانه أزلاً ، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخلْق وبصفة الخَلْق خَلَقَ ، كما ضربنا مثلاً لذلك : نقول فلان شاعر ، فهل هو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم قال القصيدة لأنه شاعر ، وبالشعر صنع القصيدة ؟ إذن : فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا وجود الصفة فيه ما قال .

فالصفة - إذن - أزلية فى الحق سبحانه ، فإذا قلت : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [الفتح] فقد ثبتتْ له هذه الصفة أزلاً ، ولأنه سبحانه لا يتغير ، ولا يعارضه أحد فقد بقيتْ له ، هذا معنى : كان ولا يزال .

وهذه المسألة واضحة فى استهلال سورة النحل : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] لذلك وقف بعض المستشرقين أمام هذه

الآية ، كيف يقول سبحانه (أَتَى) بصيغة الماضى ، ثم يقول : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] أى : فى المستقبل ؟ نقول : لأن قوله تعالى : (أَتَى) فهذه قضية منتهية لا شكَّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها ؛ لذلك جاءت بصيغة الماضى وهى فى الواقع أمر مستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ㉒ ﴾

(فَحَمَلَتْهُ) أى : حملتْ به على الحذف والإيصال ، والحمل يقتضى حاملاً ومحمولاً . ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ㉒﴾ [مريم] لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة ، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة ، وهنا ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ .. ㉒﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عن القوم لما أحسَّتْ بالحمل ، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجتْ إلى مكان بعيد .

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ㉓ ﴾

﴿فَأَجَاءَهَا .. ㉓﴾ [مريم] الفعل جاء فلان . أى : باختياره ورضاه ، إنما أجاءه فلان أى جاء به رغماً عنه ودون إرادته ، فكأن المخاض هو الذى ألجأها إلى جِذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغْماً عنها ﴿فَأَجَاءَهَا .. ㉓﴾ [مريم] أى : جاء بها ، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان .

والمخـاض : هو الألم الذى ينتاب المـرأة قبل الولادة ، وليس هو الطَّلْق الذى يسبق نزول الجنين .

وقوله : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [مريم] أوضح لنا علَّة مجيئها إلى جـذْع النخلة ؛ لأن المرأة حينما يأتى وقت ولادتها تحتاَج إلى مـا تستند إليه ، وتتشبث به ليـخفف عنها ألم الوضـع ، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة ، فألجأها المخاض ـ إذن ـ إلى جـذع (النخلة) ، وجاءت النخلـة مُعـرَّفة لأنهـا نخلة معلومـة معروفة .

وجذع الـنخلة : ساقـها الذى يبـدأ من الجذر إلى بداية الجـريد ، فـهل سـتتشـبث مـريم عند وضـعـها بكـــل هـذه السـاق ؟ بالطبع ستـأخـذ الجزء القريب منها فقط ، وأُطلق الجذع على سبيل المبالغة ، كما فى قـوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. ﴿١٩﴾﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها ، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبـالغةً فى كَتْم الصوت المزعج والصواعق التى تنزل بهم .

إذن : فـالسـيـدة مـريم أصـبـحت أمـام أمـر واقع وحـمل ظاهر لا تستـطيع إخفـاءه ، ولا تقدر على سـتره ، فقـد قبلتْ قـبل ذلك أنْ يُبشِّرها الملَك بغلام زكىٍّ ، وقـبلتْ أنْ تحمل به ، فكيف بها الآن وقد تحـــوّل الأمـر مـن الكلام إلى الواقع الـفـعلـى ، وها هو الوليـــد فى أحشائها ، وقد حان موعد ولادته ؟

لابُدَّ أن ينتابـها نزوع انفعـالى فالأمر قـد خرج عن نطاق السَّـتْر

والتكتّم ، فإذا بها تقول : ﴿ يَـٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم] أى : تمنتْ لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب ، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلاماً زكياً تعجبتْ قائلة : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم]

مجرد تعجُّب وانفعال هادىء ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلا بُدَّ من فعل نزوعى شديد يُعبِّر عما هى فيه من حَيْرة ، لذلك تمنتْ الموت ، مع أن الله تعالى نهانا عن تمنى الموت ، كما ورد فى الحديث الشريف الذى يرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت ، بل نقول : « اللهم أحْيِنى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى ما كانت الوفاة خيراً لى »[1] .

وقلنا : إن تمنى الموت المنهىّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله ، وتمرد على إرادته سبحانه ، كأنْ تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت ، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر .

وقد ورد فى القرآن مسألة تمنى الموت هذه فى الكلام عن بنى إسرائيل الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه[2] ، وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة[3] ، وأن الدار الآخرة لنا خالصة عند الله ، فبماذا رَدّ عليهم القرآن الكريم ؟

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٨٠) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٦٣٥١) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة] .

والله طالما أن الأمر كما تقولون ، والآخرة لكم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة] ثم قرَّر الحق سبحانه ما سيكون منهم فقال : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥)﴾ [البقرة]

وقال عنهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. (٩٦)﴾ [البقرة]

وما داموا لن يتمنوا الموت ، وما داموا أحرصَ الناس على الحياة ، فلا بُدَّ أن حياتهم هذه التى يعيشونها أفضل لديهم من الحياة الأخرى .

فالمؤمن ـ إذن ـ لا يجوز أن يتمنى الموت هَرباً من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَرِ الله ، ويجوز له ذلك إنْ علم أنه صائر إلى أفضل ممّا هو فيه .

وقولها : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] النسىّ : هو الشىء التافه الذى لا يُؤْبَه به ، وهذا عادةً ما يُنْسَى لعدم أهميته ، كالرجل الذى نسى عند صاحبه علبة كبريت بها عودان اثنان ، وفى الطريق تذكرها فعاد إلى صاحبه يطلب ما نسيه ، وهكذا تمنتْ مريم أن تكون نسياً منسياً حتى لا يذكرها أحد .

ولم تكتفِ بهذا ، بل قالت : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] لأن النسىّ : الشىء التافه الذى يُنسَى فى ذاته ، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويعرفه ، فأكدت النسىّ بقولها (منسياً) أى : لا يذكره أحد ، ولا يفكر فيه أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿مِن تَحْتِهَا .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] فيها قراءتان (مِنْ ، مَنْ) صحيح أن جبريل عليه السلام ما زال موجوداً معها لكنه ليس تحتها ، فدلّ ذلك على أن الذى ناداها هو الوليد ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] ، وحزن مريم منشؤه الانقطاع عن الناس ، وأنها فى حالة ولادة ، وليس معها مَنْ يسندها ويساعدها ، وليس معها مَنْ يُحضِر لها لوازم هذه المسألة من طعام وشراب ونحوه .

لذلك تعهّدها ربها تبارك وتعالى فوفّر لها ما يُقيتها من الطعام والشراب ، فقال : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] والسرىّ : هو النهر الذى يجرى بالماء العَذْب الزُّلال ، ثم يعطيها الطعام المناسب لحالتها ، فيقول تعالى :

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾

وهكذا وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقوّمات الحياة وعناصر استبقائها ، وهى مُرتَّبة على حَسْب أهميتها للإنسان : الهواء والشراب والطعام ، والإنسان يصبر على الطعام شهراً دون أنْ يأكلَ ، ويمكنه أنْ يقتاتَ على ما هو مخزون فى جسمه من غذاء ، لكنه لا يصبر على الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام حسب ما فى جسمه من

مائية ، في حين لا يصبر على الهواء لحظة واحدة ، ويمكن أنْ يموتَ من كَتْم نفَسٍ واحد .

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يُملِّك الطعام كثيراً ، ويُملك الماء قليلاً ، ولا يُملِّك الهواء لأحد أبداً ، لأنك لو غضبتَ على أحد فمنعتَ عنه الهواء لمات قبل أنْ ترضى عنه ، إذن : فعناصر استبقاء الحياة مرتبة حَسْب أهميتها في حياة الإنسان ، وقد ضمنها الحق سبحانه لمريم وجعلها في متناول يدها وأغناها عن أنْ يخدمها أحد .

فالهواء موجود وهي في الخلاء ، ثم الماء فأجرى تحتها نهراً عذباً زلالاً ، ثم الطعام فقال : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم] وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يُظهر لمريم آية أخرى من آياته ، فأمرها أنْ تهزَّ جذع النخلة اليابس الذي لا يستطيع هَزَّه الرجل القويّ ، فما بالها وهي الضعيفة التي تعاني ألم الولادة ومشاقها ؟

كما أن الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزِّها ، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين : طلب الأسباب والاعتماد على المسبب ، الأخذ بالأسباب في هَزِّ النخلة ، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة ، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها في وحدتها لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً .

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها ، ثم

تعتمد على المسبِّب سبحانه الذى أنزل لها الرُّطَب مُسْتوياً ناضجاً ، وهل استطاعت مريم أنْ تهزَّ هذا الجذع الكبير اليابس ؟

إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر ، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها ، وقد صَوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

أَلَمْ تَـرَ أنَّ اللهَ قَـالَ لمـرْيَم ... وَهُـزِّى إليك الجذْعَ يَسَّاقَط الرُّطبْ
وَلِوْ شَاءَ أعطَاهَا ومِنْ غير هَزَّة ... ولـكن كُـلَّ شَـىءٍ لَـهُ سَـبَبْ

وقوله : ﴿تُسَاقِطْ .. (٢٥)﴾ [مريم] أى : تتساقط عليك ﴿رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم] أى : استوى واستحق أن يُجنى ، وليس مُبْتسراً قبل موعده ، ومن الرُّطَب ما يتساقط قبل نُضْجه فلا يكون صالحاً للأكل .

وقوله : ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ .. (٢٥)﴾ [مريم] فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله ، وإلا فالبلحة لم تخرج عن طَوْع أمها ، إذن : فقد ألقتْها طواعيةً واستجابة حين تَمَّ نضجها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾

ونلحظ هنا أن الحق - تبارك وتعالى - عند إيجاد القُوت لمريم جاء بالماء أولاً ، فقال : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)﴾ [مريم] ، ثم أتى بالطعام فقال : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم] لأن الماء أَوْلى من الطعام فى احتياج الإنسان ، أما عند

الأمر بالانتفاع قال : ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي .. (٢٦)﴾ [مريم] فبدأ بالطعام قبل الشراب ، لماذا ؟ لأن الإنسان عادةً يأكل أولاً ، ثم يشرب ، فالماء مع أهميته ، إلا أنه يأتى فى العادة بعد الطعام ، فسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿وَقَرِّى عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] بعد أن وفَّر لها الحق سبحانه الطعام والشراب الذى هو قِوَام المادة ، وبه يتم استبقاء الحياة ، لكن بعد الطعام والشراب يبقى لديها حُزْن عميق وألم وحَيْرة ممَّا هى فيه ؛ لذلك يعطيها ربها تبارك وتعالى بعد القوت الذى هو قِوام المادة يعطيها السكينة والطمأنينة ويُخفِّف عنها ألم النفس وحَيْرة الفؤاد .

﴿وَقَرِّى عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] قرِّى : أى : اسكنى . وهذا التعبير عند العرب كناية عن السرور ، ومنه قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩)﴾ [القصص]

والعرب تعبر بِقُرَّة العين وسكونها عن السرور ؛ لأن سكون العين على مَرأىً واحد لا تتحول عنه دليلاً على أن العين صادفت مرأى جميلاً تسعد به وتُسَرُّ فلا يُغنى عنه مَرْأىً آخر ، فتظل ساكنة عليه لا تتحرك عنه .

وقد يستعمل هذا التعبير فى المقابل أى : فى الشر والدعاء على إنسان وتمنى الشر له ، كالمرأة التى دخلتْ على أحد الخلفاء فنهرَها فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته وأقرَّ عينك . فظنَّ الحضور أنها تدعو له ، لكنه فَطِن لمرادها ، فقال لجلسائه : ما فهمتم ما تقول ، إنها

تقصد أتمَّ الله عليك نعمته أى : أزالها ، أما سمعتم قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُه　　　ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمْ

ذلك لأن الإنسان بطبيعته ابن أغيار ، لا يثبت على حال ، فإذا ما وصل إلى القمة وتمتْ له النعمة ، وهو ابن أغيار فلا بُدَّ أنْ يتحوَّل عنها .

وقولها : أقرَّ الله عينك ، أى : أسْكَنَها بالعمى .

فقوله تعالى لمريم : ﴿وَقَرِّي عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] أى : كونى سعيدة باصطفاء الله لك مسرورة بما أعطاك ، فما تهتمين به وتحزنين هو عَيْن النعمة التى ليستْ لأحد غيرك من نساء العالمين .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم]

وهنا يتولَّى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذى لا تجد له هى مبرراً فى أعراف الناس ، فَمَنْ يلتمس عُذْراً لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج ؟ ومهما قالت فلن تُصدَّق ولن تسلْم من ألسنة القوم وتجريحهم .

إذن : فجواب ما يكره السكوت ، فأمرها سبحانه أنْ تلزم الصمت ولا تجادل أحداً فى أمرها : ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم] والصوم هنا أى : عن الكلام ، كما حدث مثل هذا فى قصة زكريا ؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها ، فقد أعطى الله

زكريا مع عَطَب الآلات ، وأعطى مريم بنقص الآلات ، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى .

وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أنْ ينتقدوا على القرآن ، فقالوا : كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفى نفس الوقت يأمرها أن تقول : نذرت للرحمن صوماً[1] ؟

يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رأته ليتم بذلك إعلان صومها ، ثم انقطعت عن الكلام ، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تُومىء برأسك هكذا تعنى نعم فى كل اللغات ، وحين تُشير بأصبعك هكذا تعنى لا ، إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامّة .

وقد تعرَّضَ القرآن الكريم فى موضع آخر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف]

أى : لا يقربون من الفهم ، فَهُمْ يفهمون من باب أَوْلَى ، ومع ذلك كان بينهم كلام وإشارة ولغة ، وفَهِم كل منهم عن الآخر : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .. ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف]

---

(١) قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٥٥: « قوله تعالى : ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم] . مرتب على مقدَّر بينه وبين الشرط تقديره : فإما ترين من البشر أحداً ، فيسألك الكلام ، فقولى إنى نذرت .. الآية ، وبهذا سقط ما قيل من أن قولها « فلن أكلم اليوم إنسياً » كلام بعد النذر ، إذ هو بهذا التقدير من تمام النذر لا بعده » .

ونلحظ فى قولها : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم] أن النهى عن الكلام مع البشر خاصة فلم تَقُل : لن أتكلم ، وإلاَّ فمعها جبريل - عليه السلام - يُكلِّمها وبينهما تفاهم ، لعلَّه يرى لها مَخْرجاً ، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج ، فإذا كان ربها - تبارك وتعالى - أمرها بالصوم عن الكلام ، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم .

ولما تكلَّمنا فى قوله تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي .. (٢٤)﴾ [مريم] استبعدنا أنْ يكون هذا النداء من جبريل ، وقلنا : إنه نداء الوليد ؛ لذلك اطمأنتْ مريم وعلمتْ أنها أمام معجزة عُظْمى ، ووثقتْ تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحَرج مع قومها ؛ لأن الكلام ممَّنْ يقدر على الكلام لا يأتى بحجة تُقنِع الناس عن خلاف العادة ، أما حين يتكلم وهو فى المهد ، فهذا يعنى أنه معجزة خارقة للعادة ، فإذا كان الوليد معجزةً فالمعجزة فى أُمِّه من باب أَوْلَى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧)﴾

ونعجب للسيدة مريم ، فبدلَ أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس ، أو تنتقل به إلى مكان آخر فى فيافى الأرض إذا بها تحمله ، وتذهب به ، وتبادر به قومها ، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها فى الحجة التى معها ، والتى ستوافيها على يد وليدها .

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

٢٥٠ قرشاً